قصّة
الاستقلال
في سوريا ولبنان

تأليف

اللايدي سبيرز

نقله الى العربية

منير البعلبكي

السلسلة السياسية

٧

obeikandi.com

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية
للترجمة والتأليف والنشر
تشرف عليها لجنة من الجامعيين

الرئيس
منير البعلبكي

المدير العام
بهيج عثمان

•

الادارة : بيروت – شارع المعرض : بناية العلايلي
تلفون ٦٣ – ٠٠ – صندوق البريد ١٠٨٥

•

تموز ١٩٤٧

obeikandl.com

١ . اول العهد

●

كان المطر يهطل غزيراً طوال طريقنا الى بيروت ، في اواخر تشرين الاول (اوكتوبر) . وما كدنا نصل العاصمة اللبنانية حتى هرع الجنرال كاترو لمساعدتنا ، في البحث عن مقرّ شتوي ، هذه المرة ، لنحلّ اخيراً في القنصلية اليابانية . كان بناء القنصلية واسعاً ذا قاعة جميلة تذكّر بالبندقية (فينيسيا) ككثير من البيوت المشرقية . وكنا نظن أول الامر ان مُقامنا في هذا البناء سيكون قصيراً ، ومن هنا وافق هوىً في نفوسنا ، ولكنّ الأقدار شاءت أن نقيم فيه ثلاث سنوات بتمامها . والحقّ أننا لم نكن نتوقّع أن يطول مكثنا في البلاد ، فلم تكن ثمّة فكرة تقول بتعيين زوجي وزيراً . وإنما كان زوجي عضواً محافظاً في البرلمان ، يقوم بواجبه من الخدمة العسكرية عبر البحار ، وكان رئيساً لبعثة سبيرز في سوريا ولبنان ، آنذاك ، ولكنّ المكاتب الرئيسية للبعثة كانت لا تزال في لندن ، وكان يعتزم العودة الى بلاده بعد ثلاثة اشهر ، إذ لم يكن ينتوي أن يتخلى عن مقعده في مجلس العموم ليصبح دبلوماسياً .

وكانت دمشق قد فتنتني . فهي مدينة محافظة ، عتيقة ، فخورة ، منقبضة وعنيفة . إن جمالها هادىء حيناً ، مثيرٌ حيناً آخر . وإن

obeikandl.com

الألوان في أسواقها لتشبه ألسنة اللهيب المندلعة. أما بيروت فكانت ناعمةً حلوةً كثمرةٍ ناضجة . لقد بدت وكأنها فاقدة للشخصية . فلست تجد شيئاً من أناقة الصحراء في شوارعها المتعرّجة . وبدلا من شيوخ العرب الذين يخطرون ويتبخترون في اسواق دمشق بعباءاتهم الفضفاضة ومهاميزهم المتصادمة تقع في بيروت على الآباء اليسوعيين المهازيل ، ورجال الدين من الكنيستين المارونية والارثوذكسية بلحاهم الضاربة الى السواد. أما الجمال الضعيفة التي تشقّ طريقها من الاسواق الى المرتفعات فكانت مستوحشة وكأنها في غير موطنها ...

وبيروت مدينة متحيّرة محيّرة . فالارستوقراطية المحلية تعيش في منطقة قديمة ذات قصور وجنائن تدعى «الحي السرسقي»، ولكنها لا تطلّ على البحر الجميل . والجامعة الاميركية تحتلّ الرأس الممتد في البحر ، على الجهة المقابلة من البلدة ، في حين يقع المقرّ الفرنسيّ الجميل الى الجنوب وسط غابة من الصنوبر قرب ميدان السباق ، وقد كان في وقت من الاوقات ملهىً أو كازينو . لقد عشنا محاطين بالمدارس والأديار ، وعلى الرغم من أن منزلنا لم يكن بعيداً عن قلب المدينة ، فقد كنت دائماً أضلّ السبيل اليه .

ولم تكن بعثة سبيرز بعيدةً جداً ، فهي تحتلّ بناءً كان من قبل مركزاً لقيادة الجنرال ويغان، وكان يقوم الى جانبها مستشفى هادفيلد– سبيرز . ذلك بأننا طالبنا ببناء المستشفى الالماني وملحقاته فانتقلت الراهبات الالمانيات الى ملجأ خاص بهنّ في الجبل، لتعيش النساء من أفراد « وحدتنا » * في منزلهنّ .

* وحدة سبيرز .

كان المستشفى ساحراً . فهو يزدهي بشرفات عراض تُطلّ على الجبال . وإذْ لم يكن ثمة قتال في ذلك الجزء من العالم فقد كان في استطاعة جميع الممرّضات أن يخرجن ، على التعاقب ، في إجازة . والحقّ أنهنّ وُفّقن الى أن يجمعن حولهن عدداً ضخماً من المعجبين ، فهنّ يقضين اوقاتاً فيها متعة وفيها لذة . وكاد يكون كل شيء في المستشفى مُبهجاً ساراً لو لم اكن من الضعف بحلٍّ قبلت معه باستلحاق اثنتين من ممرضات السيدة كاترو الفرنسيات . تلك كانت غلطة . فكلتا الممرضتين كانت غير مؤهلة للعمل الذي نُدبت له . ولقد رفضتا النهوض بعبء الواجبات الليلية في اطّراد . فكانتا تقصدان الى السيدة كاترو وتبثانها شكواهما الدائمة من الطريقة التي يُدار بها المستشفى . إنها الطريقة البريطانية ، ولقد أحبّها الكولونيل فروشو Fruchaud ، وأن المرضى لسعيدون بها ، أقصى ما تكون السعادة ، فليس من حسن الرأي أن أستبدل بها غيرها . وكنت أعلم أن ذلك سيورثني متاعب في وقت قريب ، ولكني أهملتها الى حين ، ما دام السير ادوارد (زوجي) يعمل في تعاون وثيق مع الجنرال كاترو .

واتصلتُ وزوجي بعدد كبير من الناس ، وبدأت تدريجياً في تصنيفهم فِرقاً فِرقاً . وكانت بيئتنا واسعة غير متجانسة . كان ثمة اولا ، الفرنسيون . ذلك بان الحلفاء منحوهم ، سنة ١٩٢١ ، انتداباً على سوريا ولبنان يشبه الانتداب البريطاني على فلسطين . وكان لهم دائماً مفوض سام يحيط به جيش ضخم من الموظفين المدنيين . ومع أن الجنرال كاترو كان قد اطّرح لقب « المفوض

obeikandi.com

السامي » ، فقد ظل رجاله يحتلون السراي الكبير ، ويظهرون وكأنهم حكام البلاد . وكان ثمة رئيس للجمهورية اللبنانية ، هو السيد الفرد نقاش الذي عيّنه الجنرال دانز ، ثم جاء الجنرال كاترو فأقرّ تعيينه ، ولكن ذلك لم يعنِ فيما يبدو شيئاً كثيراً ، ما دام الفرنسيون قد عطّلوا الدستور عند نشوب الحرب ، وما دام مجلس النواب مسرّحاً . وكان للرئيس زوجة ، ولكن لم يكن لها شأن على ما يظهر . كانت سيدة صغيرة وديعة ، وكانت أبعد من أن تُضاهي السيدة كاترو . والحقّ ان السيدة كاترو كانت خشنة مع اللبنانيين. ولقد تساءلتُ ، في أول الامر ، هل ستحاول ان تكون خشنة معي أنا ايضاً ..؟ ومهما كان فقد كانت هي سيدة بيروت الاولى ، أما أنا فظهر أني السيدة الثانية. ولقد اجتمعنا دائماً في لجان الصليب الاحمر ، وفي المآدب الرسمية والحفلات العمومية . كانت حركاتها تنم عن مغالاة في التودّد ولكن وميضاً خطراً كان في عينيها ... كانت تضمر في ذات نفسها شيئاً . . . وكنت اعرف ذلك . ولقد انتظرتُ هذا الذي تعتزمه ، مهما يكن ، في غير ما خشية ولا جزع .

كان الجنرال كاترو يحمل لقب القائد الأعلى لجيوش المشرق ، وهو لقب جميل ، ولكنه لم يكن تحت قيادته جيش يُعتد به . فليس هناك الا فرقتنا والفرق المحلية ، او « الجيوش الخاصة » كما كانوا يدعونها . ولكن الجيش التاسع كان يحتل البلاد . وكان الجنرال ولسون قد نقل مركز قيادته من القدس الى برمانا ، في الجبال . وكانت بيروت تعجّ بعدد كبير من الضباط

البريطانيين .

اما الجالية الاميركية فكانت ذات شقين . كانت ثمة الجامعة الاميركية بمستشفاها الجميل ، والقنصلية الاميركية . وليس من شك في ان الجامعة كانت اعظم المؤسستين شأناً . واحسب ان جورج ودسورث ، الذي كان أول وزير اميركي في دولتي المشرق ، يقرّني على هذا الرأي . ذلك بأن الجامعة كانت بعيدة عن السياسة ، وكان رجالها دائمين ، نسبياً ، وكان نفوذها في البلاد عظيما عميقاً .

وكان في بيروت اربع شخصيات اميركية لامعة ، إبان عهد فيشي ، وقد احتفظوا جميعاً بالعلم البريطاني خفاقاً كأنما هو علمهم الخاص . هؤلاء هم القنصل الاميركي العام ، مستر انجرت ، وقرينته ، وبيارد وماري دودج . والواقع ان مستر انجرت أحب انكلترا دائماً . اما ساره ، امرأته ، فقد أعلمتني أنها عندما تقدّم لخطبتها قالت إنها لا تستطيع أن ترضى به بعلاً إذا لم يشعر نحو البريطانيين بمثل شعورها نحوهم . ولقد أقاما الدليل على صدق محبتهما لبريطانيا قبل مجيئنا ، وبعده .

ولم تكن اميركا قد دخلت الحرب بعد . وإنما اتكلم هنا عن أحداث تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٤١ ، ولكن ذلك لم يمنع مستر انجرت وامرأته ، وبيارد وماري دودج من مكاشفة الجنرال دانز بان هواهم كان معنا . ولقد اصبح مستر انجرت ، بعدُ ، أحد زملاء زوجي الحميمين ، وظل كذلك طوال الاشهر التي قضيناها معاً في المشرق . ولم يتردّد بيارد في تلبيتي عندما سألته المساعدة على إنشاء مستوصفات طبية في الاجزاء النائية من البلاد . إن كونه

obeikandi.com

قديساً لم يحل بينه وبين الاهتمام بشؤون العالم ونتيجة الحرب .

إن بيارد وماري دودج لشخصيتان عظيمتان . انهما من الافراد القلائل الذين تجرّدوا عن الانانية تجرداً كاملاً . والحق انه لم يكن في ميسوري ان اقوم بنصف ما قد قمت به لولاهما . فعندما توليت رئاسة الصليب الاحمر البريطاني في سوريا ولبنان ، كانت ماري نائبة لي في الرئاسة . وعندما أنشأت نوادي الاجازات للنساء المنتظمات في سلك الخدمة كانت ماري هناك تساعدني في مشروعي. لقد خدمتني بالف طريقة ، واقفة ايامها لخدمة الجنود البريطانيين ، فهي تعودهم في المستشفى ، وتنظم لهم الحفلات الموسيقية ، وتفتح بيتها لهم ايام الآحاد ، بعد الظهر . وما كان من الممكن للمستوصفات ان تنجح من دون بيارد ، فقد كان يعرف البلاد ويعرف الاهلين ، وكان في ميسوره أن يأتينا بما نحتاج اليه من الاطباء ، وكان اسمه موضع الاحترام في كل مكان ، حتى الحدود التركية وما وراءها .

وكنت صريحة معه . فقلت :

« اني معنيّة بهذه المستوصفات لأنها، في الدرجة الاولى،تساعدنا في الحرب ، بصورة غير مباشرة ، أما في وقت السلم فسيكون لها شأن آخر . ان الناحية الانسانية هي الاجدر بان تتقدم ، عندئذ ، كلّ ما عداها . لانه ما دامت الحرب قائمة ، فليس لشيء آخر اية قيمة » .

وشكلنا لجنة ، برعاية بعثة سبيرس ، تقوم على امر هـــذه المستوصفات . وانتخب بيارد دودج رئيساً لهذه اللجنة ، وانشئت خمسة مراكز في الاجزاء المترامية من البلاد . ولكني وجدت ان

الفرنسيين لا يعطفون كثيراً على هذا الجهد . لقد ساورتهم الشكوك . ما الذي نبتغيه من ذلك كله ؟ وما الذي يقوم وراء ذلك كله ؟

وضحك بيارد عندما حدثته حديث هذه الشكوك وأعلمته ان مدام كاترو طفقت تمطرني بوابل من الاسئلة عن المستوصفات ، ثم قال :

« انتظري قليلا . لسوف تجدين مدام كاترو تنشيء مستوصفات خاصة بها في وقت غير بعيد ! »

– « ذلك خير وابقى ! الله يعلم ان المجال لواسع عريض ! »

– « حق ما تقولين » .

ولكن مدام كاترو لم تستطع على ذلك صبرا . إن إنشاء مستوصفات من مثل التي انشأناها ليستغرق شهوراً ، وفي الوقت نفسه كان ثمة مستشفى هادفيلد – سبيرز ، غير بعيد . ذلك ما أورثها عصبية ونرفزة . كانت لا تجد في طاقتها ان تقوم بعمل المراقبة والتفتيش، وان تتقدم بمختلف المقترحات فيما يتعلق بالطريقة التي يجب ان تدار بها المستوصفات ، ومع ذلك فقد كانت تشعر ان في استطاعتها ان تديرها بأفضل مما استطيع ، وأن من حقها ان تكون هي المشرفة عليها . لقد كانت رئيسة الصليب الاحمر الفرنسي . وإذاً فيجب أن تضم هذه المؤسسة الجديدة (المستوصفات) إلى الفلك الذي تسيطر عليه . ولكن كيف السبيل الى النجاح في ذلك ؟

ثم ان شيئاً خطر لها ، وبلغني هذا الشيء في صورة مذكرة

رسمية تحمل توقيع الجنرال كاترو ، وتنص على بعض القواعد التي يتعين عليّ اتباعها في مستشفاي ، وهي قواعد تتصل خاصة بمسألة العناية بالمرضى ، وتتصل بصورة اخص بالخدمات الليلية .

وعندما تلقيت هـذه الأوامر ارسلت الى الجنرال كاترو نسخاً عن عقـــدي مع الجنرال دي غول ، والمراسلات التي دارت بيني وبينه . حتى اذا اطلع عليهـا الجنرال كاترو اضطر الى ان يعترف بسلطتي المطلقة على ملاك الممرضات العاملات في مستشفاي . لقد قامت مدام كاترو بمحاولتها للسيطرة على «الوحدة» ولكنها اخفقت . والحق انها لم تعاود الهجوم كرّة اخرى ، ابداً ، ولكنها وجهت قواهـا نحو إنشاء مستشفى متنقل ممتاز جـــداً ، يكون من صنع يديها . ولقد قدر لنا ان نلتقي في الدلتا ، وفي تونس ، والجزائر ، وايطاليا ، واخيراً في فرنسا ، وكلّ منا على رأس وحـدتها . فاذا كان ثمة من خصومة بيننا ، فقد كانت خصومـة نبيلة ، واذا كانت قد بزّتني في السرعة التي استطاعت بها التنقل عبر القارات ، فقـد تفوقنا عليها كثيراً في عـدد المرضى الذين ُعنينا بهم . واحسب ان صداقتنا بعد حادث بيروت انتهت الى ان تكون اقوى مما كانت قبل ذلك الحادث . . .

obeikandl.com

٢ . مع ديغول والفرنسيين الاحرار ...

●

اخبرني الجنرال كاترو ، عقب رجوعـــه من مصر ، ان من المتوقع ان يزور الجنرال دي غول البلاد ... إن علينا ان نقصد الى دمشق لنمضي فيها ثلاثة ايام أو أربعة ... الرئيس دودج يود ان يتحدث اليّ عن المستوصفات ، والسيـــدة دودج تريد ان تراني لتباحثني في امر نادي الممرضات ... كذلك ترغب مدام كاترو في ان اشاركها في إعداد العدة لحفلة راقصة خيرية . لقد تلفنت لي غير مرة . وكانت في الشقيف ، حيث يقوم بيتهم الجديد في الجبـال . ومن الخير ان اتصل بها بدوري ، تلفونياً .

ولقد كنت وزوجي خفافيش ليل ، دائماً . لكأنما كتب علينا ان لا نفرغ للحديث إلا في الساعات المتأخرة من الليـــل ، ان ساعات النهار لم تجعل ، فيما يبدو ، لمثل ذلك . ولكنني كنت متعبة بعد هذه الرحلة التي قمت بها منذ قريب الى الجبهة الافريقية . وكان ذهني مضطرباً بعيداً عن الصفاء . فمـــا كدت آوي الى فراشي الجبلي ، الرطب ، المبهج ، حتى رأيتني اجوز الصحراء من جـديد . وتراءت لي ، في الحـــلم ، طبرق ، وبير حكيم ، والسلوم ، وممر حلفا وغيرها ، لأجد نفسي اخيراً وقد حططت على صخـــرة فوق

obeikandi.com

الحمام العسكري ، انتظر عودة ادوارد (زوجي) من المكتب .

لم يكن ذلك حلماً ، وانما هو العمل النمطي (روتين) لوزير صاحب الجلالة في سوريا ولبنان ، ايام الصيف الحارة . فقد كان يبرح عاليه الى مكتبه في بيروت ، كل صباح ، لألحق به عند الظهر ومعي الخادم وطعام الغداء ، فنلتقي في كوخنا البحري ، على الشاطىء . والحق ان الضابط الفرنسي المشرف على شؤون الحمام العسكري ، هو الذي تلطف فاقام لنا هذا الكوخ . كان معظمه من القش ، وكان يفتح صدره للبحر . وكان ثمة كراسي كالتي تكون على سطوح السفن ، وطنافس للاسترخاء . اما الطعام فكنا نمده على قطعة من القماش الابيض : دجاج بارد وسلطة ، وبعض الخوخ والكمثرى . حتى اذا اقبل ادوارد ، اسرع جوزف الى تحضير « اومليت البيض » على طباخ «بريموس» ، في خارج الكوخ ...

وكنت على موعد مع بيارد وماري دودج في الساعة الخامسة . لقد دعتني الى تناول الشاي في منزلها الاميركي البهيج . ان علينا ان نخصّص الايام للجان التي نعمل فيها . كذلك كان عليّ ان ارى القيّمة على مستشفى زيلندة الجديدة ، وان اتحدث مع مدام كاترو حديث الحفلة الراقصة . لقد قالت لي انها ستقام في الفندق الكبير بصوفر ، لان جميع المصريين الاغنياء ينزلون في ذلك الفندق . دون غيره . ان ليندا سرسق ستشارك في خدمة الحفلة ، وكذلك دونا ماريا ، وقرينة جورج ثابت ، وجميع اللبنانيات واللبنانيين الاذكياء القلوب . اننا خليقون بأن نبيع مئات البطاقات . ولسوف تأخذ

مدام كاترو مكانها من المائدة ، والرئيس نقاش الى يمينها ، في حين سيكون من حظي ان يتخذ الجنرال كاترو مقعده الى يميني ، هذا اذا وافق الجنرال على المجيء . أما أدوارد فلن يشهد الليلة ، على التحقيق .

*

هوذا الكومندان جولين ، اقرب مرافقي الجنرال كاترو إلى القلب ، مستلقياً على ظهره . وها هو جون وعلي خان يحملان سلة غدائهما . وعلى الصخور المقابلة رجلٌ يبدو مثل روبن هاتشنز ، رئيس القسم العسكري في بعثة سبيرز. ان روبن لبارع الجمال ، وان له ساقين حسنتَي التكوين . ولن تنقضي فترة من الوقت حتى يُقبل هاميش ماكنزي . وهاميش هذا يؤلف مع دان ، وتوني ، مجموعة بارعة من الرجال تنعم بها مفوضيتنا في هذه البلاد . والحق ان دان ليسلز كان من تلك الشخصيات التي تبلغ من إرهاف الحسّ درجة تضيق معها بكل شيء ، أو تكاد. فلم يكن في استطاعته ان ينفض الهموم او ينساها شأن توني الهزيل الجميل ، الذي كان يحب الطيور والشعراء الانكليز من اهل القرن التاسع عشر ، ولم يكن يجد سلوى وعزاء في مرافقة السيدات اللبنانيات المضيافات ، شأن هاميش . وكان ثمة ، ايضاً ، بوجنر ذو الجسم الهزيل ، والوجه القاتم المتعصب ، الذي لم يلتحق بدي غول إلا بعد ان احرز النصر في معركة بيروت . وكان معه غادتان هما فخر نادي الضباط الفرنسي . انهما جميلتان ، وان لهما جسدين فارعين داكنين ، واكتافاً فخمة ، وسيقاناً جميلة . أما منديلاهما (منشفتاهما) فكانا

obeikandi.com

من الصِغر بحيث يتعذر على العين ان تلمحهما او تـكاد ...!

قلت معركة بيروت! ولكن هـــل كانت ثمة معركة في سبيل بيروت؟ إن مدام «س» لتلوّح لي بيدها، متابعة طريقها. لقد برح زوجها بيروت منذ وقت غير بعيد. وكان في المعسكر، الآن، قرب القاهرة. أما هذه المخلوقة اللطيفة الصغيرة التي مرّت بي منذ لحظة فكان زوجها يقيم في معسكر، غيرَ آبه بان يلتحق بالجنرال دي غول. والذي يظهر انه قد كان في بيروت عدد من الزوجات اللواتي آثر ازواجهنّ الوفاء لفيشي. ولكن الجنرال كاترو كان كريماً، فهو يجري عليهن أعطياتهنّ بحيث يستطعن البقاء في داراتهن* وراء النخيل المتهافت العاجز. ليس هذا فحسب، بل لقد كانت في بيروت زوجات اخريات خلّفهن ازواجهنّ وراءهم يوم رحلوا الى فرنسا على الباخرة الطيبـــة «بروفيدانس»، وهؤلاء ايضاً كنّ في اوتيل سان جورج، محلّ عناية فائقـــة من الجيش الفرنسي.

ولكن ذلك ليس من الانصاف في شيء. فلم يكن في هــــذه البلاد جيشٌ فرنسي. لقد قفل الجيش الفرنسي في سوريا عائـداً إلى فرنسا. واولئك الذين لم يرجعوا الى فرنسا إنما ولوا وجوههم قِبلَ الصحراء. كانوا يتوقعون ان يحاربوا، من جديد، في العلمين. ولم يكن هنا إلا الجنرال كاترو ورجاله وعدد من المندوبين لا يتجاوز الاثني عشر منتثرين في البلاد، في اللاذقيـــة، وحلب، وحمص، والسويداء من جبل الدروز. وكان صديقنا القديم ماجرين

* جمع دارة، وهي الفيللا.

فرنيري Verneret في اللاذقية ، وفي حمص كان الكولونيل ديس اسار Des Essars . وهو رجل لطيف ، قريب الى النفس . امـا كورنيون مولينييه فكان يعمل في مكان ما مـع القوة الجوية ، ولكنه كان كثير التردد علينا . والحق أن ادوارد احبه حباً جماً ، في حين احب هو بدوره روزي Rosie فكان واحداً من المعجبين بها ، وما اكثرهم ... ولكنه لم يكن في البلاد جيوش فرنسية . كل ما كان للفرنسيين تلك « الجيوش الخاصة » التي يقوم عليهـا ضباط فرنسيون هم من طراز يختلف اختلافاً كلياً من اولئك الذين كانوا يخدمون مع دي لارمينا وكونيج في الفرقة الفرنسية الحرة الاولى .

كان لا يزال في البلاد عدد ضخم من الفرنسيين الفيشيين، وكان بعضهم يشغل مناصب عالية في البريـد ، والتلغراف ، والمرفأ ، وغيرها . ذلك بان الفرنسيين الاحرار لم يكن لديهم يوم دخـلوا البلاد قـدر كاف من الرجال يسندون اليهم مختلف الادارات . فآثر الجنرال كاترو ان يبقي الفرنسيين المـدنيين الذين عملوا تحت امرة الجنرال دانز في مراكزهم ، على ان يستعين بالجيش التاسع البريطاني . ولكن ما الذي يحدث اذا ما اصبحت هذه البلاد ميداناً للحرب ، وتقدم الالمان عبر تركيا ؟ لم يكن ذلك الوضع ليسر رجال الامن عندنا ، ولكننا لم نكن بقـادرين على ان نرفس رجال فيشي الى الخارج . ان الجنرال كاترو وحده هو القادر على ذلك، او دي غول . لقد كان الجيش التاسع يسيطر على البلاد لاغراض حربية ، ولكن الفرنسيين كانت لهم امتيازات اقليمية . وهكذا بدا الموقف معقداً جداً . والحكومتان اللبنانية والسورية ؟ ما

obeikandi.com

موقفهما من ذلك كله ؟ لقد منحنا استقلالا ، ولكن لم يكن عندهما ما تقولانه في ما كان يجري من حولها . فالحق ان من المستهجن ان لا يكون لك سلطة على جيشك الخاص ، وشرطتك الخاصة .

وكان الضباط الفرنسيون الذين يقودون القوات المحلية لا يحفلون بالحرب ولا يعنون بها كثيراً ، فيما يبدو . ولم يحفلون بها ؟ لقد كانوا يستشعرون الراحة ، كل الراحة ، حيث هم . كانوا مرتاحين في معسكراتهم السورية عندما اقتحم العدو « سيدان » وتدفقت جحافله على باريس . وكانوا على اكمل ما يكون المرء من هناء العيش عندما هبط الطيارون الالمانيون مطاراتهم السورية . وعندما وصلنا نحن ، انضموا الينا في كثير من الهدوء ، وفي كثير من الاطمئنان ، ليظلوا حيث كانوا ، غير منزعجين ، تحت شارة صليب اللورين .

ولكن ماذا كانوا يعملون منذ ان قدر لهم ان يوجدوا في هذه البلاد ؟ كان الجيش التاسع البريطاني هنا ابتغاء الدفاع عن مصر . فعن اي شيء كان الفرنسيون يدافعون ؟ المفروض انهم كانوا يدافعون عن مصالح فرنسا . فلقد كان لفرنسا انتداب على تلك الديار . ولكن الجنرال كاترو قد وضع حداً للانتداب . لقد قال ذلك في الثامن من حزيران (يونيو) ، يوم تقدمنا الى إربد ، والجنرال كاترو رجل شريف . لقد رفض ان يسلم الهند الصينية الفرنسية الى اليابانيين ، والتحق بالجنرال دي غول الذي كان قد التحق بنا ، وهكذا كنا حلفاء . يجب ان لا ننسى ذلك . كنا جميعاً نخوض الحرب معاً ، ولكن لما كنا هنا بسبب من الحرب ، ولما كان

الفرنسيون هنا لمجرد انهم كانوا في البلاد طوال الخمس والعشرين السنة الخالية ،ولمجرد انهم كانوا يعتزمون البقـــاء سواء انتهت الحرب ام لم تنته ، ولما كانت الحكومتان المحليتان تتوقعـان منا ان نتخلى لهما عن البلاد بعد ان تضع الحرب اوزارها ، فقد كان الوضع يؤذن بنشوب حالة مريعة من الاصطـدام وسوء التفاهم ، في وقت قريب .

٢

لست ادري على وجه الدقـة متى بدأ ادوارد يشك في حسن نيات الفرنسيين الاحرار نحو الحكومتين السورية واللبنانية . انهلم يخبرني بذلك قط . ومن الجائز ان يكون هو نفسه لا يـــدري . ولكن شيئاً لم يحدث خلال ذلك الصيف من سنة ١٩٤٢ ، مما يجعل موقفه من الجنرال كاترو صعباً ، او مما يعترض سبيل صداقتنـــا المتبادلة . لقد احييت ، ومدام كاترو ، ليلتنا الخيرية الراقصة في صوفر،ووفقنا الى ان نجمع مبلغاً ضخماًمن المال . ولقدحضر الليلة رجالات البلاد البارزون جميعاً، وفيهم رئيس الجمهورية السيد نقاش وقرينته ، ووزير الخارجية ، ووزير الداخلية . والحق ان جميـع وزراء تلك الحكومة التي لم تكن تحكم (كان الدستور قد عطل عنداندلاع الحرب)حضروا الحفلة،كماحضرها جميع الضباط الفرنسيين الذين كانوا في الواقع يتولون شؤون الحكومة بدلا من الوزراء ، وافراد الطبقة الارستوقراطية البيروتية التي كنت قـــد بدأت اتعرّف اليها ، كآل سرسق وآل تابت ، وآل تويني ، وآل طراد

وآل فرعون ، وآل بسترس ، واميل اده الذي كان يأمل ان يكون رئيساً للجمهورية عندما عزم الجنرال كاترو على ان يفسح المجال امام الشعب لاجراء انتخابات نيابية ،وبشارة الخوري اللطيف الطيب النفس الذي كان يطمح ايضاً إلى ان يكون رئيساً للجمهورية في المستقبل ، ولكنه لم يكن واثقاً من نفسه بقدر وثوق اميل اده من نفسه ، لأنه لم يكن يتمتع بالحظوة عند الجنرال كاترو وقرينته ، وعدد جمّ غفير من ضباط الجيش التاسع ، والقنصل الاميركي العام ، وقناصل مصر ، وتركيا ، واليونان ، وايران ، وكلّ ذي شأن في البلاد ما عدا وزير صاحب الجلالة السير ادوارد سبيرز ، والجنرال كاترو المندوب العام والقائد الاعلى لجيوش الشرق .

٣

ووصل الجنرال دي غول ، ودخل المقرّ الفرنسي ، دخول الملوك ، (وكان التخريب الذي اوقعته به القوات الجوية الملكية قد تعهدته يدُ الاصلاح) ودُعي جميع الناس ، وفي جملتهم وزير صاحب الجلالة البريطانية واللايدي سبيرز ، لزيارته .

ولم نعرف أننا قد تلقينا دعوة ، كما لم نعرف اننا كنا على وشك ان نقوم بمقابلة خاصة . لقد تمّ ذلك كله بالتلفون بين المرافقين . كان ثمة استقبال رسمي في يوم ما ، في المقر الفرنسي ، كما اخبرنا فرنسيس ستونر ، مرافقنا الجديد ، في الساعة الرابعة والنصف . لقد دُعي جميع اعضاء السلك القنصليّ . أما نحن فقد طلب الينا ان نحضر في الساعة الرابعة والدقيقة العاشرة . ذلك بأنهم لم يرغبوا في

obeikandi.com

ان يحشرونا مع هذا الحشد من القناصل ، وذلك بأنهم كانوا يعتزمون ان يعاملونا معاملة خاصة . ولقد استغربت هذا الموقف ، وكذلك فعل ادوارد. وبعد فلم تكن هذه هي المرة الاولى التي نجتمع فيها بالجنرال دي غول . ومن هنا بدت لنا هذه المجاملات الرسمية مغالى فيها ، بعض الشيء . ومع ذلك ، فقد وطنّا النفس على الذهاب ، ولكن بعد الساعة الرابعة والدقيقة العاشرة بقليل ، اذ لم يكن من الميسور علينا الوصول في مثل هذا الوقت . وهكذا ارتديت اجمل اثوابي وآنقها واعتمرت بقبعة عريضة ، لنجوز بسيارتنا ابواب القصر الكبيرة ، ونمرّ بحرس الشرف في الساعة الرابعة والدقيقة العشرين .

كان في استقبالنا على درجات السلم الامامية العراض ستة من الخدم وضابطان اثنان . وترجلتُ من السيارة . وإذ كنت اعرف المقر الفرنسي معرفة جيدة تقدمت في اتجاه الصالون الكبير القائم الى يمين المدخل ، هذا الصالون الذي وجدته يغص بالناس . ولكن واحداً من المرافقين قال : « عفواً ، مدام ! » واقتادني الى باب في جهة اليسار ، لأجد نفسي في غرفة تكاد تكون مظلمة ، قد اوصدت نوافذها ، وخلت من الناس . ثم تبعني ادوارد وفرنسيس ، الى حيث انتظرنا في ذلك الشفق القاتم ، متسائلين عن السر في ذلك كله . وما هي الا دقيقة او دقيقتان حتى انفرج الباب في اقصى الغرفة ، فاذا بالجنرال دي غول يخطر في زهو ، يتبعه الجنرال كاترو . وانحنيا ، كلٌ بدوره ، على يدي . ورحبّا بادوارد ، ثم بفرنسيس . واتخذ الجنرال دي غول مجلسه

على اريكة إلى جانبي،وسألني عن صحتي. فأجبته،ثم سألته عن صحته. بعد ذلك أقبل علينا خادم يحمل طبقـــاً (صينية) عريضاً ينتظم زهاء خمسين قدحاً من عصير البرتقال، واومأ اليّ الجنرال دي غول بان أتناول قدحاً، ففعلت، وسألته عن صحة مـدام دي غول. وبعد لحظة نهض الجنرال كاترو واقفاً وقال لدي غول:

« يا قائدي، إن ضيوفك ينتظرونك! »

وهكذا وقف الجنرال دي غول، ووقف ادوارد، ووقفتُ أنا، حاسبة ان الوقت قد حان للالتحاق بجمهور الناس في الحفلة، فاتجهت من جديد نحو الصالون الكبير، ولكن المرافق عاد فقال لي « عفواً، يا سيدتي » وحال بيني وبين ابواب الصالون، وقادني الى الخارج حتى السلم الأمامي، لتقلّنا سيارتنا، وينقضي الامر.

وقلت لادوارد تلك الليلة: « كانت حفلة شائقة! »...

فقال: « أجل، يبدو أنها كانت كذلك! »

وضحكنا. ولكن عندما ذهب فرنسيس في تأويل هذا الموقف الغريب الى أنه ضربٌ من الاكرام الخاص بسبب من رتبتنا الرفيعة، قلت انني كنت خليقة بان لا أتعب نفسي باختيار اللباس الى هذا الحدّ لو كنت أعلم أنه لن يُسمح لي بان أشهد الحفلة، وتذكرت ذلك اليوم الذي كان الجنرال دي غول يقاسمنا فيه، منذ سنتين، غداءنا العائلي بمناسبة عيد الميلاد، في بيت صغير بانكلترا، وطفقت اتأمل كيف تغيرت الاشياء...!

ومكث الجنرال دي غول زهاء أسبوع في بيروت، كما اذكر، وقد رأيناه كرّة اخرى. وقد دعاني هذه المرة لتناول طعام الغداء

معه ، وجلست الى يمينه عازمــة اصح العزم على ان لا أجبن أمام عينيه الثقيلتين الباردتين . وحدثته عن ذلك اليوم ، في السلوم، بعد الخروج من بيرحكيم، عندمــا جاء كونيج الى المستشفى ليعود الجرحى . وصفت له فرحة الجنود الجنونية بالنصر ، فاصغى اليّ بوجه لا يحمل معنى من معاني التأثر ، ولكن انتباهه كان شديداً ثم قال : « اشكركِ لما قد رويت عليّ هذا الحديث. » ولكنه لم يقل « اشكرك لما قد فعلت وممرضاتك لرجالي » . والحق انه لم يتلفظ لا في تلك المرة ، ولا في اي وقت آخر طوال الحرب ، بكلمــة يمكن اعتبارها ثناء على العمل الانساني الذي كنا نقوم به في خدمة جرحى الحرب من الفرنسيين .

ولست اذكر هــذا لانه قد أثر في موقفي من جنوده ، فبهم كنت مرتبطة ، ولهم كنت أعمل . ولست اذكره لانه قد اثر في موقفي منه (الجنرال دي غول) ، فلست اعرف انني شعرت نحوه يوماً بشيء اكثر من الاعجاب البارد ... وانما أذكر ذلك لانه يؤكد ما ذهبت اليه دائماً من رأي في خلقه وشخصيته. فالحق انه لم يكن ثمة متسع ،في كيان الجنرال ديغول الشديــد المتمركز، لعاطفة ضعيفة كعرفان الجميل . وان المرء ليتوقع ان يقع عنـده ، في ظروفه المتبدلة ، على بادرة كريمة . فهو لم يعد منفياً مغموراً يعاني آلام الازدراء المبرحــة . وهو لم يكن في بيروت لاجئاً يلتمس العون من صديق قوي . لقد كان ، في رأيه الشخصيّ على الاقل ، على ارض فرنسية ، فهو يسلك في هذه البلاد سلوك عاهل عظيم . ومع ذلك فقد كان يجد من المتعذر عليه ان يقر بايما دين لايما اجنبي ،

حتى ولو كان هذا الاجنبي امرأة انـكليزية مُفردة تشاطر جنوده الحياة . ان رجلاً اكثر استواء more normal لجدير بان ينقلب الان بشوشاً انيساً . امـــا دي غول فلم يكن كذلك . لقـد جاز منذ عهد غير بعيد شوطاً صالحاً . صار الرئيس المعترف بـــه لحركة تتعاظم قوتها يوماً بعد يوم ، ولكن طريقه لا تزال طويلة ، فهو لا يستطيع الاسترخاء . انه لن يسترخي الا بعد ان يبلغ غايته النهائية ، وما غايته الا إحياء فرنسا ، لا تحريرها فحسب . بل ان العودة بفرنسا الى مجدها القديم ليس هدفاً يقنـــع به دي غول . ففرنسا يجب أن تولد من جديد ، ويجب ان يعاد انشاؤها على اسس تختلف كل الاختلاف عن تلك التي تقوّضت في سنة ١٩٤٠ .

ولو قد اعتقد المرء ، كما اعتقدت انا، ان هذه الرؤى كانت تلازمه في الوقت الذي اتكلم عنه ، وانه كان يركز تفكيره في الطريقة التي يستطيع معها اخراجها من دنيا الاحلام الى حـــيز الواقعة القوية ، اذاً لصار في إمكانه ان يجد تفسيراً لعُجبه (كبريائه) البارد كالثلج ، ولادعائه الغريب للقوة السلطانية في الوقت الذي لم يكن يملك شيئاً من مثل ذلك ، ورغبته الدائمة في دفع جميع البوادر والحركات التي تنم عن صداقة وودّ ، ومقاومتهـا . لقد كان بسبيل خدعة على نطاق هائل . وكان يلعب لعبة ضخمة ، ويداه خاليتـان من الورق او تكادان . لقد خرج اول ما خرج ليفتـــح فرنسا للفرنسيين،ثم ليُجبر العالم على ان يعترف ببلاده التي خسرت احترام العالم دولةً من دول الطبقة الاولى .

ولم نرَ منه ، فيما اذكر ، شيئاً اكثر من هذا في زيارته تلك .

ولست املك أيا فكرة عن طبيعة المحادثات التي دارت بينه وبين الجنرال كاترو . ولئن كان قد وجد في صديقه وزميله السابق ، الجنرال سبيرز ، عدواً مقبلاً ، فليس في ذلك ما يدهشني . لقد كانت الاحداث توحي ، في وضوح وبيان ، انه لا يعتزم ان يسمح لدولتي المشرق بتحقيق الاستقلال الصحيح ، سواء في ذلك الوقت بالذات ، ام في اي وقت آخر . ولو قد صحّ هذا ، اذاً لوجب ان يكون ضمان الحكومة البريطانية لاعلانه استقلال البلدين شيئاً مزعجاً حقاً ، واذاً لكان وجود صديقه سبيرز ، في بيروت ، مورثاً لأشد الحقد والغيظ . ذلك لانه كان يعرف سبيرز . وكان يدرك جيداً انه لا محل عنده للمساومة وأنصاف الحلول. ولو اردت اصطناع الصراحة ، في غير ما ترفق ، لقلت ان دي غول كان فيما اعتقد ، يبتغي إخلاف ما وعد ، ويحاول جهده ان يُبقي سوريا ولبنان في قبضة يده . وكان دي غول يعرف جيداً انه لولا البريطانيون لكان من اليسير عليه ان يُحل نفسه من الميثاق الذي اعطاه ، ولكن البريطانيين كانوا عنيدين حتى الازعاج بعد ان رأوا الى اسمهم الطيب يتعرّض للاساءة والاذى ، وكان سبيرز اشدّ عناداً من معظمهم . وكان على دي غول ان ينال من الحكومة البريطانية بطريقة ما ، سواء بالتهديد السياسي او بالتهديد بعرقلة مجهودنا الحربي . اجل لقد كانت ثمة طرق مختلفة . ولكن النيل من الوزير البريطاني ، في الحال ، كان متعذّراً . ومن هنا ، لم يحاول دي غول ان يفعل ذلك .

٤

كان واضحاً في اواخر صيف ١٩٤٢ انني كنت بين امرين: إما ان اقطع كل صلة لي « بوحدة سبيرز » ، وإما أن اضطر الى ان احيا حياتين تفصل ما بينهما عدة آلاف من الاميال .

وقد يقول امرؤ إن واجبي الاول انما هو نحو زوجي ، وانه ما من احد يمكن ان يحل محل امرأة الوزير البريطاني في المشرق ، في حين ان في ميسور المستشفى ان يتابع أعماله بدوني . ولكن ادوارد لم يكن ليشارك مثل هذا القائل رأيه . فهو لم يطلب اليّ ، لا في سنة ١٩٤٢ ، ولا في اي وقت آخر ، ان اهجر عملي في « الوحدة» (اي المستشفى) ، ولم يعترض يوماً على فراقي له للالتحاق بها . على العكس ، كان ادوارد يسهّل عليّ امر هذا الانتقال . لقد كان عليّ ان اقوم في سوريا ولبنان بمهام كثيرة ، ولكنه كان يعرف انني أذبت قلبي في إنشاء هذا المستشفى العسكري ، وكان ينظر اليه نظرته الى مجهود حربي ذي شأن . والحق انه كان فخوراً «بالوحدة» وبالنساء البريطانيات ـ وكنت واحدة منهن ـ اللواتي صحبن الفرنسيين الاحرار في ميدان القتال . وفوق ذلك فقد كان معنياً خاصة بفرقة الفرنسيين الاحرار ، مشوقاً الى خدمتها ، ولا غرو فقد كان له فضل انشائها مع الجنرال دي غول . وهو لم يفقد هذا الشوق ولا تلك العناية في يوم من الايام . وهكذا منحني مطلق الحرية في ان اوزع اوقاتي .

ليس هذا فحسب . بل لقد كان ثمة اعتبار آخر يقتضيني مواصلة

الخدمة في « الوحدة » مهما كلف الامر . تلك هي تبعتي تجاه جمعية الاسعاف الحربي البريطاني في نيويورك . لقد وقفت من مشروعي موقفاً نبيلا ، وسخياً . فلم تكتف بتقديم المال الضروري لانشاء المستشفى ، في اول الامر ، بل تابعت ارسال منحة شهرية تغطي نفقاتنا الجارية . ولست اقصد بذلك نفقات المستشفى الجارية، فهذه كان يتحملها الجيش،ولكن اقصد اشياء من مثل رواتب الممرضات والاثواب الموحّدة ، والادوات العسكرية الخاصة بالمناطق الحارة ، وتجديد جهاز المستشفى ونفقات مكتبنا في لندن . وكانت دوريا ستانهوب ، كأمينة سر فخرية للوحدة ، تتولى مختلف شؤونها في لندن ، وكانت على اتصال مطرد بلسلي بنزن Leslie Benson . وقد أوضحت « لسلي » أن المال الذي يأتينا من اميركا انما يُقدّم على اساس من بقائي انا على رأس الوحدة .

واذاً فلم يكن في طوقي أن أطّرح العمل ، في حال رغبتي في ذلك . ولكني لم استشعر ، في يوم ، هذه الرغبة . ان عليّ ان أحيا حياتيّ ، مهما تناءت الشقة ، وأرهقني الجمع بين المتباعدَين .

وفي آب (اغسطس) قمت بزيارة قصيرة « للوحدة ».ثم عاودت زيارتها في تشرين الاول (اكتوبر) .

كان الجنرال دي لارمينا ومرافقه الكابتن لوريل قد اصيبا اصابات خطيرة في حادث سيارة فنُقلا الى المستشفى للمعالجة . وكان المستشفى لا يزال يقوم في مكانه الجميل من هيليوبوليس ، وكنت اعرف انهما سيجدان فيه عناية ممتازة ، ولكن تغييرات كانت قد حصلت في ملاك ممرضاتنا حملتني على ان استوثق من ان كل شيء

obeikandl.com

يتخذ مجراه الطبيعي . لقد وفدت علينا في تموز ، مع جان وليمز ، اربع ممرضات ليحللن محلّ « انابل مان» التي قفلت راجعة الى موطنها ، و « سنثيا » التي قصدت الى الولايات المتحدة لترى أمها وتقرر ما اذا كانت سترضى بالزواج من بيتر سمث دوريين ام لا ، و « جوي جوود » التي تزوجت من مرفين فيبس ، و « دافن بورنسايد » التي كانت تعتزم ترك المستشفى . لقد كانت حاجتنا الى الامداد بالغة . ولقد طلبت اول ما طلبت سائقات مدربات ، فظهرن في القاهرة ، في الوقت المناسب ، والتحقن بنا في هيليوبوليس . كانت « بيتي باتيسون » ضخمة ، وذكية فيما يبدو . أما « راشيل هورويل ايفانز» فنظرت إليّ ، يوم قادت سيارتي لاول مرة ، بعينيها الرماديتين الجميلتين المذعورتين ، وقالت في صوت متهدّج فاتن : « لقد سمعت انكِ تحبين ان تقاد سيارتك في سرعة فائقة ، ايتها اللايدي سبيرز!» ولكني لم يسعفني الحظ لأعرف اياً من هاتين الفتاتين معرفة حسنة . أما اريس جودوين ، وروث نكولز ، فقد شعرتُ انني لم اعرفهما على الاطلاق . فأريس لم تكن من ذلك النوع الذي يعرض بضائعه في واجهة الدكان . ولقد احتجت الى شهور لأدرك أيّ قوة تكمن في قرارة تلك الفتاة الخجول .

ولم يكن جميع الذين امدّتنا بهم القيادة قادرين على احتمال ذلك النوع من الحياة وذلك الضرب من العمل اللذين تقتضيهما « الوحدة » . فحياتنا لم تكن عادية ، وعملنا لم يكن اصطلاحياً ولا مطرداً . كان يتعين على ملاك الوحدة كلها من فتيات ، وخدم ، وموظفين ، ان يكونوا على استعداد لكل شيء ، وان يكونوا

Oujelkandil.com

قادرين على ان يكيفوا انفسهم وفقاً لاحوال تتراوح بين الترف الذي تسمح به فُرش الفندق الوثيرة ، وبين التقشف الذي يقتضيه النوم على الارض ، دونما فراش على الاطلاق . كانت الاجازات ، سواء في ذلك القصيرة منها والطويلة ، تلغى احياناً باعلام فوْريّ . وفي بعض الاحوال كان يتعين على الممرضات ان يَسقن سيارات الاسعاف ، في حين تنصرف السائقات الى التمريض . ليس هذا فقط ، بل لقد عرفنا حالات اضطررنا فيها الى الاستعانة بالطهاة في خدمة المرضى، والى الافادة من موظفي المكتب، في فنون الطهي..

وكان المستشفى في احسن حالاته ، في هيليوبوليس . فالابنية فخمة ، والجو رطب . ولقد أفرد لي و « لجوسلين راسل » جناح للضيوف خاص كما أفرد جناح آخر للجنرال دي لارمينا والكابتن لوريل . ولكن جوسلين التي اسندتُ اليها امر المستشفى كانت قد اخذت تجد الحياة صعبة جداً. لقد اصابها اليَرَقان فأذبلها، وان الهمّ ليأخذها على « باسيل » الذي سافر الى الهند ، ولكن هذا كله لم يكن وحده المسؤول عن ضيقها بالحياة في هيليوبوليس . والذي احسبه ان السبب الاول في ذلك كونها لم تستطع ان تنشىء في ذات نفسها « حاسة » التمريض. فالحق انني وبربارا لم نكن ممرضتين مدربتين، بيد اننا كنا ، اذا دخلنا جناحاً من المستشفى ، نحسّ كيف كانت الامور تجري فيه ، ونتصل بالمرضى فنسألهم عن حالهم وعن انتظام خدمة الممرضات لهم . أما جوسلين فلم تكن كذلك . كانت مجرد سائقة بارعة . وكانت على احسن العلاقة مع الكولونيل الذي كان يجد متعة فائقة في فرنسيتها الطلقة . والواقع انها باونها الزاهي

obeikandi.com

وابتسامتها الحية، وشعرها اللامع المصقول كانت على غاية من النجاح في الفرقة . لقد احبت الفرقـــة حباً هو اقرب الى التقديس ، وافتخرت بانتسابها الى «الوحدة» ولكنهـا كانت اعجز من ان تسوس الفتيات. كانت من الصرامة، وحب الترتيب والنزعة الاجتماعية بحيث لم يكن في مقدورها ان تفهم روح « الوحـدة » المرنة ، الخشنة ، البوهيمية . لقد فهم هذه الروح ميكال راونتري ، الذي عُهِد اليه أمر الخدم مذ توفي آلدرسون ، فكان الكولونل يُقسم به ، ويقول « إن مايك هو ساعدي الأيمن » . وفي الحق انهما كانا يؤلفـــان زوجين طريفين . فاحدهما ، مايك ، طويل ، متراخي الاوصال ، كثير الهدوء ، والآخر ، الكولونيل ، قصير ، كثير الهياج ، سيء الطبع ، يفيض فكاهة وينفجر ضحكاً ، في يوم ، ليغرق في كآبة عميقة في اليوم التالي ...

ومن الخير ان انص هنا على أني لم أرتح كثيراً للكابتن لوريل عندما اجتمعت به ، أول ما اجتمعت ، في بيروت . فقد بـدا لي شابا متهتكاً خليعاً ليس له من همّ الا هاته النسوة اللواتي يترددن على « بار » فندق سان جورج . ولكني عدّلت رأيي فيه عندما اتانا ذات يوم ، وقد قُصم ظهره ، في حادث سيارة على الطريق بـين القاهرة والاسكندرية . لقد أخبرني انه عندما عاوده رشده رأى الى دي لارمينا تحت السيارة ، فجدّ في الزحف نحوه . ولم يُدرك اول الامر ان ظهره قد قصم ، ولكنه توهم ان الجنرال قد اسلم الروح. لقد حاول ان يرفع السيارة ، ولكنه لم يقوَ على ذلك . كل مــا استطاع ان يفعله رفعُ الصوت في طلب النجدة ، حتى اذا سمعـه

بعض الجند من الهنود سألهم ان يحملوه ورئيسه الى سبيرز ، إلى « مستشفى هادفيلد سبيرز ، في هليوبوليس » .

واخترنا له ولدى لارمينا غرفتين متعاقبتين تطلان من عل على فناء المستشفى. وعهدنا الى ايفلين فولروث بان تكون ممرضتها الخاصة . وما هي الا فترة حتى اخذ لوريل يكلف الخدم بان ينقلوه على محمله الى الشرفة العليا . حتى اذا استلقى هناك على معدته طفق يوزّع المطالب والاهانات الصاخبة على الخدم ، والممرضات والاطباء الذين يجوزون ارض المستشفى ، من تحته . وكان يداعب ايفلين في غير ما رحمة . وانما كانت متعته الكبرى في ان يرى الى حمرة الخجل تشيع في وجهها : « انظري ، ايتها اللايدي سبيرز ، انظري كيف تحمرّ ، هذه الفتاة المسكينة ، خجلا ... أنا لم أسألها الا عن نوع « الكولوت » الذي تلبس ! ... »

وكانت مدام دي لارمينا تدلف الى المستشفى كل صباح مزودة بزجاجات الشمبانيا و بـ « ترموس » هائل يحفل برطبات « جروبي » المشهورة في القاهرة ، فيُحمل لوريل الى غرفة دي لارمينا ونتحلق جميعاً حول فراش الجنرال ، وتنشيء مدام دي لارمينيا تضحك اذ ترى الى وجه زوجها يتغير لونه مع الايام ، تحت ضمادات رأسه ، من ارجواني قان الى ظل غريب من البنفسجي ، والاصفر ، والاخضر. ان جراحاته لشديدة الايلام ، ولكنها ليست ، لحسن الطالع ، خطيرة مخوفة . وأحسب أنه قد برحنا بعد اسبوعين . وفي آخر ايلول (سبتمبر) رأيت لوريل في بيروت ، جذلا الى ابعد الحدود ، وقد ارتدى سترة ضيقة ناصعة البياض تضغط على جسمه من أعلى

الظهر الى اسفله. كان قد حمل جميع الممرضات على ان يكتبن اسماءهن عليها . ولقد طلب الي ، بعد ان فتح ُصدرته ليريني هذه الاسماء، ان اضيف اليها توقيعي . فأجبت سؤله ووقعت على صدره. وكان ذلك آخر العهد به . لقد طار بسترته البيضاء إلى الولايات المتحدة ليرى زوجه الاميركية ، ثم رجع في الوقت المناسب ليُقتل وهو يقود هجوماً في المعركة الاخيرة من اجل تونس .

☆

ورجعتُ الى عاليه في ايلول (سبتمبر) لأشرف على انتقالنا الى بيروت ، ولكن الأسرة كانت تعلم أنني سأعاود الالتحاق بالوحدة ، لاقتراب نشوب معركة العلمين ، وهكذا حزمت امتعتي من جديد ، وارتديت ثوبي العسكريّ ، وامتطيت متن الطائرة في الثاني والعشرين من تشرين الاول (اكتوبر) الى القاهرة .

والتقتني (ت . و) في الماظة . قالت لي إن « الوحدة » تقوم اليوم في الدلتا ، على مسافة خمسة عشر ميلاً من الاسكندرية . فلم نبطيء في سلوك ذلك الاتجاه .

كان مونتجومري يعدّ العدة لهجومه المرتقب . وفي اليوم التالي لوصولي ، ٢٣ تشرين الاول ، وقعت معركة العلمين ، وتدفقت سيارات الاسعاف على ابواب المستشفى في المساء نفسه . كان ذلك كلّ ما رأيناه من هجوم « مونتي » العظيم ، ومن انتّصار الجيش الثامن البارع من رومل .

ولقد قيل فيما بعد إن الفرنسيين لم يُحسنوا البلاء في العلمين . والذي اعرفه شخصياً أنهم قضوا اياماً عسيرة ، وذاقوا من المتاعب

شيئاً كثيراً . فقد غصّ الجنــاح المخصص للضباط في المستشفى باصدقاء قدماء من امثال دي روبير ، دي بولارديير ، موريل ، وسواهم . ولم تكـد بربارا تعاود العمل حتى لم يبق في المستشفى فراش واحد خالياً .

وكانت ايفلين تتعهد بعنايتها جناحاً مُثقــلاً ،ينتظم في نصفه الضباط ، ويحفل في نصفه الآخر بارباب الرتب الدنيا . واني لاذكر الآن الهرج الذي ساد قسم الضباط عندما جاءت الانبـاء بنزول الاميركيين والبريطانيين على الأرض الافريقية ، ثم عندما جاءت الانباء معلنة وقف المقاومة الفرنسية التي استمرت ثلاثة ايام . كان ذلك كثيراً عليهم . أيكون الفرنسيون قد حاربوا الحلفاء مرة ثانية ؟ لم يكن في ميسورهم ان يفهموا كيف جاز ذلك، وهمهموا ، وآذانهم تجهد في سماع صوت الراديو : « يالهم من قذرين ! » « Les Salauds » «يالهم من بلهاء » Les Crétins «إنهم الرجال انفسهم الذين حاربونا في سوريا ما قولك في ذلك ، ايتها اللايدي سبيرز ؟ » وبدأت عندئذ مناقشة واسعة تدور على ويغان، ونوجيس ، وامير البحر استيفا ،وجوان، وما الذي سيعمله الجنرال دي غول عندما تسقط تونس وبيزرت في يديــه .

وتكاثر العُوّادُ (الزائرون) على الضباط. والحق ان سيدات الصليب الأحمر الفرنسي في الاسكندرية كنّ اكـثر من كريمات . لقد حملوا اليهم الفواكه ، والحلويات ، والمعجنات ، ولفائف التبغ والصحف والمجلات . وفي ذات يوم اقبلت مدام كاترو ، ومعهــا سلالٌ كبيرة من البرتقال ، فطافت بجميع اقسام المستشفى . لقد

بدت لي أسعد مما كانت في بيروت ...

كانت تمر بنا أيام يخيم فيها البشر على المستشفى . ولكن بعض الاجنحة كانت كالحة قاتمة . وخلف الحاجز الذي يفصل قسم الضباط عن قسم اصحاب الرتب الدنيا في جناح ايفلين كان يتواصل ذلك النضال الذي نعرفه جيداً ، آناء الليل واطراف النهار .

وفي ساعة متأخرة من ليل احـــد الأيام جُلتُ في المستشفى فوجدت ايفلين لا تزال تقوم بواجبها الليلي ، على الرغم من أنـــه كان من حقها ان تستريح ، قبل ذلك الوقت بفترة طويلة . كانت تقوم قريباً من فراش في اقصى الغرفة ، تُعنى بأحـــد المرضى ، فتقدمت منها فألفيت يدَيْ المريض وعينيه مُضمدة كلها . وانتظرت حتى إذا انجزت مهمتها برحتْ وإياي الجناح ، عبر صفوف المرضى . كان بعضهم يئن شيئاً قليلاً ، وكان بعضهم غائباً عن الرشد ، يهذي .

كانت ايفلين إحدى ممرضاتنا الممتازات . إنهـا تتمتع بطبيعة نارية مضطرمة ، فهي أسعد ما تكون يوم يقتضيها الواجب عمـلاً جاهداً . ولكن عينيها الزرقاوين كانتا جدّ محزونتين تلك الليلة .

« أرجو أن يموت ! » قالت ذلك ثم استطردت : « وأحسب أنه سيموت . إن حاله غاية في السوء . لست استطيع أن اعرف نبضه . من الخير له ان يموت . إنه اعمى ، وإنه لفاقد كلتا يديه . »

ولكنه لم يمت . كان غلاماً صغيرا . لقد عرفته بربارا في الحال عندما قصدت الى الجناح ، وقالت : « الا تذكرين انـه كان يأتي الى مخزن الجيش ليشرب الحليب ويأكل كثيراً من المعجنات ؟ »

وأحسب انه لو لم تكن ايفلين ممرضة ممتازة اذاً لأسلم هـذا الغلام

obeikandi.com

الروح ، في اغلب الظن . ولقد رأيته بعد بضعة شهور في المستشفى العسكري بدمشق . كان يصرّ على ان في استطاعته ان يرى بعض الشيء . بيد ان ذلك غير صحيح . لقد كان بلا عينين . لقد رأيت محجريه الفارغين . ولست ادري ما الذي وقع له بعدُ .

٭

كان الكولونيل فرنبيه ، طوال هذه الفترة ، بعيداً عنا في الصحراء مع وحدته الامامية . ولقد قصدت الى رؤيته بعد المعركة . . كان رومل ماضياً في تراجعه ، وكان الاسرى الالمان والطليان يتدفقون عبر الطريق ، ووجهتهم معسكرات الاعتقال . ولقد رأيت الى جموع غفيرة منهم تجلس على الارض ضمن الحظائر المسيّجة بالاسلاك الشائكة ، وكأنها تشهد احتفالاً دينياً رهيباً . ولكن راشيل أعلمتني انهم كانوا في انتظار الطعام .

وكم كان توقي شديداً الى البقاء حيث كنت ومتابعة ما يخبئه القدر في هذه البقعة من الارض . ولكن عيد الميلاد كان قد آذن بالحلول ، وان عليّ ان اعد له العدة في سوريا ولبنان . كان الميلاد يقتضيني أن اجهز ثلاثة آلاف صُرة من صُرر العيد لتوزع على الجنود البريطانيين في مستشفيات بيروت ، وصيدا ، ودمشق ، وحلب . ليس هذا فحسب ، بل لقد كنا نعتزم ان نُحيي حفلتين راقصتين ، بمناسبة العيد ، في بعثة سبيرز ، الأولى للضباط ، والثانية لأرباب الرتب الدنيا .

وتجمهرت عليّ الممرضات وغير الممرضات وكلّ يتساءل : « إلى البيت ؟ » ، « سوف تعودين وشيكاً ، أليس كذلك ؟ » ،

فيما كنت امتطي سيارة « فورد » العتيقة . أجل سوف ارجع من جديد ، فلست اطيق البعاد طويلا عن دنيا الاوجـــاع الممضة ، والخدمة الانسانية الصامتة .

obeikandl.com

٣. في المجتمع بين بيروت ودمشق

•

ليس من شك في ان امرأة الوزير البريطاني في بلاد صغيرة، خليقة بان تحظى بنصيب وافر من التملق والانتباه. وانما كان ذلك صحيحاً بخاصة، في سوريا ولبنان. ذلك لان الوطنيين في البلدين اعتمدوا منذ البدء على حكومتنا في كفاحهم بسبيل الاستقلال، موضحين هذه الحقيقة أحسن الايضاح. والحق ان اعلان الجنرال كاترو للاستقلال لم يكن هو الذي نفخ فيهم املاً جديداً وثقة جديدة، ولكن ضمان الحكومة الانكليزية لذلك الاعلان هو الذي كان له في نفوسهم ذلك الاثر. وهم لم يعتمدوا على الفرنسيين، فيما أحسب، لسببين: الأول لأن الفرنسيين سبق ان وعدوهم بالاستقلال ثلاث مرات ثم اخلفوا الميعاد، والثاني لأنهم كانوا غير مقتنعين بان الجنرال دي غول يمثل فرنسا، وينطق باسمها. فقد كانت سلطته ضبابية، وكان يعتمد على حليفته بريطانيا. اما كضابط فرنسي، فلم يزد على ان يكون قائدعصابة من العصاة جرّدها بيتان من جميع الحقوق. وما كان بيتان بالشخصية المغمورة لدى سكان المشرق. فأحكامه وقوانينه كانت تنفذ حتى وقت قريب في بيروت ودمشق. كانت تذاع في كل قرية من لبنان، وفي كل قبيلة من قبائل الصحراء

السورية ، الى ان انهزمت جيوشه ونقلت عبر البحر الى فرنسا . على ايدي البريطانيين الذين لا يمكن فهمهم ...

والسوريون واللبنانيون ليسوا أغبياء ولا معتوهين . فأصحاب المصارف في بيروت ، وشيوخ القبائل العربية في خيامهم السورية كانوا يعرفون ان البريطانيين هم الذين ساقوا الحرب الى بلادهم ، وكانوا يعرفون السبب في ذلك . كان ممثلو المحور ينشطون نشاطاً كبيراً ، وهبوط الطائرات الالمانية على الارض السورية لم يبق سراً من الاسرار . وبريطانيا دولة عظمى ، ولعلهـــا لا تقل عظمة عن المانيـــا ، وليس كذلك فرنسا التي هزمها الالمـــان على ارضها ، والبريطانيون في المشرق. والواقع أن السوريين لم يرتاحوا لوصول أمداد جديدة من الفرنسيين الذين جاءوا بالاتفـــاق مع الجيش البريطاني ، ومساندته ، ليحتلوا مركزهم القديم الممتاز ، في بلادهم. فقد كان كثير ممن شهد ثورة ١٩٢٥ في جبـــل الدروز ورأى الدماء تسيل في دمشق ، بعد ذلك ، عندما قذف الفرنسيون المدينة بالقنابل ، لا يزالون احيـــاء يرزقون . تلك ثورة كلفت السوريين خمسة وعشرين الف قتيل .

أما في لبنان فكان الشعور ضدّ الفرنسيين اقل عنفاً . فنصف السكان في هذا البلد مسيحيون ، ونصفهم الآخر مسلمون ودروز . وكان الفرنسيون قد اعلنوا انفسهم حماةً للمسيحيين ، حماة من نوع غريب ، كذلك قال بعضهم ، يثيرون المسلمين على اولئك الذين يدّعون حمايتهم . ولكن فريقاً آخر ، وبخاصة الاغنياء جداً ، كانوا على استعداد للترحيب بصديقهم القديم ،الجنرال كاترو. ومهما يكن ،

فقد كان واضحاً ان البريطانيين هم الذين سيقررون مصير دولتي المشرق – إلا اذا هزموا على أيدي الالمان، طبعاً. وكان السوريون واللبنانيون ، حتى ذلك الوقت الذي وصل فيه البريطانيون ، يعتقدون بان الالمان سيربحون الحرب . أما بعد دخول البريطانيين بلادهم فلم يعودوا على مثل تلك الثقة من انتصار المحور . وكان الفرنسيون ، في الوقت نفسه ، قد جددوا عهدهم القديم بمنح البلاد استقلالها ، ولكن مع فارق عظيم ، هذه المرة .

كان الجنرال غورو قد اعلن هذا الاستقلال في سنة ١٩٢١ ، ثم كرّر المسيو دو جوفنيل هذا الاعلان ، كمفوض سام للجمهورية الفرنسية ، بعد حوادث سنة ١٩٢٥ . وفي سنة ١٩٣٦ وقعت الحكومات الفرنسية والسورية واللبنانية معاهدة تعترف باستقلال دولتي المشرق وانتهاء الانتداب الفرنسي عليهما . ولكن هذه المعاهدة ، كسائر العهود التي سبقتها ، لم تفض الى شيء ، لأنها لم تقترن باقرار مجلس النواب في باريس . اما الان فقد اشتركت بريطانيا نفسها مع الفرنسيين الاحرار في الاعتراف بكل من سوريا ولبنان دولة مستقلة ذات سيادة ، ومهرت الحكومة البريطانية هذا الاعتراف بالطابع الرسمي ، من طريق تعيين وزير مفوض لدى الحكومتين .

وطبيعي في هذه الظروف والملابسات ان ينظر السوريون واللبنانيون الى الوزير البريطاني نظرتهم الى صديق ، وأن يكونوا على غاية من اللطف نحو زوجته . والحق أنهم كانوا كذلك .

مع رجالات دمشق ونسائها

كان من المفروض أن يكون لنا مقرّ رسمي في دمشق ،ومقر آخر في بيروت ، ما دام ادوارد مفوضاً لدى الحكومتين جميعاً . والحق ان دمشق كانت أعظم العاصمتين اهمية ، ولكننا لم نستطع ان نقع على مسكن يناسبنا فيها . فالمنازل الحديثة قليلة نادرة ، واثرياء السوريين الذين يشغلونهـــا لم يكونوا راغبين في هجرها ، وكانت القاعدة المتبعة في الجيش التاسع تقضي بعدم مصادرة الابنية الا للاغراض العسكرية الخالصة . ولقد وفقنا الى بيت او بيتين عربيين بارعين في المدينة القديمة ، ولقد استحوذ احدهما ، بخاصة ، على اعجابي ولكنه لم يحظ بالقبول من قبل رجالنـا بحجة الخطر وفقدان السلامة .

واذكر اننا زرناه في شهر نوار (مايس) يقودنا امين سرّ من الوزارة السورية ، فيما أحسب . كان في وقت من الاوقـات قصر شيخ من الشيوخ ،وكان يصطنع اليوم مقراً لمحكمة الطـلاق * ، ولكن ذلك لم يكن ليمثل صعوبة جدية ، كما قال دليلنا. فالحكومة السورية تكون سعيدة بأن تنقل المحكمة الى موطن آخر اذا مـا رغبنا نحن في المكان .

كان البناء محاطـاً بسور عتيق لا تستطيع أن تحزر ان وراءه قصراً . واجتزنا اليه طريقاً ضيقة انتهت بنا الى باب ضخم عريض مرصع بالمسامير ،لنجد انفسنا في رقعة مسحورة يتراقص فيها النور

* لعل المؤلفة تقصد المحكمة الشرعية .

المرتعش على آلاف من الواح النوافذ الزجاجية ، وعلى الرخام الشاحب اللون الذي فرشت به الارض . ان فناء القصر واسع مربع . وإن ثمة لينبوعاً او فوّارة، وبرتقالاً ، وقد تسوّرت النوافذ المقابلة ، المتداعية الى السقوط ، وورود متعرشة صفراء . اما الباب الذي ورائي فمصوغ من الآبنوس المطعم بالعاج . وامسكت انفاسي . كان تحفة فنية تستوقف الانسان . إن كل شيء في هذا المكان المسحور هاديء لا يتحرك ، خلا الفوّارة التي لا تني مياهها تعلو وتسفل — تعلو وتسفل .

ولكنهم قالوا ان من المتعذّر اختياره منزلا لنا . فالطريق غاية في الضيق — والوزير البريطاني يجب ان يسكن في شارع يكون من الاتساع بحيث تستطيع الدبابات ان تخفره ، في حالات الاضطراب والبلاء . ومن هنا اضطررنا ان نهبط فندق « اوريان بالاس » كلما قصدنا الى دمشق .

وما كان المكث في الفندق ليرضيني ، في الواقع . فقد كان يزيد في صعوبة تعرّفي الى النساء المسلمات . كنت أرغب في ان اعرفهن . ذلك لأنني كنت اعتبر أن في جملة واجباتي كزوجة للوزير أن انشيء صداقات مع ابناء البلاد التي يعمل فيها زوجي . ولقد اتصلت بعدد من الرجال المقدّمين ، البارزين ، ولكني كنت اريد أن اتصل كذلك بأسرهم ، ولست افكر ، إذ اقول هذا الكلام ، في « تاج الدين » الذي كان رئيساً للجمهورية عندما جئنا دمشق، اول ما جئناها ، فالحق ان احداً لم يدعُ ذلك الخبيث المضحك زعيماً عربياً . . . لقد كان مجرد آلة على رأس عصابة عربية فرنسية تتحكم

في شؤون البلاد .. وانما افكر باولئك الرجال الذين قضوا معظم حياتهم في المنافي والسجون ، والذين قدّر لهم ان يشكلوا حكومة البلاد بعد انقضاء عام واحد ، اعني شكري القوتلي ، الذي اصبح رئيساً للجمهورية ،وسعدالله الجابري، وجميل مردم،وفارس الخوري. وبين الفينة والفينة كان احد هؤلاء الرجال يتناول طعام الغداء معنا في قاعة الطعام نصف الخاصة المجللة بالسجف الخضراء،في اوريان بالاس . لقد احببتهم ، وأنست بهم . ولقد وجدت ان من اليسير التحدث اليهم . كان شكري القوتلي ممتلىء الجسم ، اسمر ، ذا بنية قوية ، ووجه فخور ، وانف اقنى. وكان الجابري انيقاً، رقيقاً ، ذا رأس اشيب فضي ، ووجه ناعم التكوين ، ولكنه يؤذن بان صاحبه من اولي العزم الشديد . وكان فارس الخوري مسيحياً. ولقد اوقع في مخيلتي ، اول ما رأيته ، صورة جَدّ اميركي . كان يكلل رأسه شعر اشيب كثيف ،وتطل على وجهه عينان ضاحكتان. كان متقدماً في السنّ ، شديداً ، قوياً . وهو من اقدم خريجي جامعة بيروت الاميركية، يتكلم انكليزية طلقة ، بلهجة اميركية. لقد اوحوا جميعاً بانطباعة واحدة من القوة . أما جميل مردم فكان يوحي بمزاج من المرونة والدهاء ، وبذكاء سريع مضبوط يكاد يكون فرنسياً . والحق انه بدا « اوروبياً » اكثر من زملائه الثلاثة السابقين .

لقد أشارت فرَيا ستارك إلى هؤلاء الرجال في كتابها « الشرق غرب » «East is West» كنماذج رائعة لطبقة متوسطة تنشأ بين عرب سوريا . والحق ان هذه الجملة لا تحمل الى ذهني اية فكرة عن

حقيقتهم . إنهم ليسوا امراء عرباً ، ولكن عليهم طابع ما ندعوه العِرْق. وكثيراً ما كنت اضعهم ، بالخيال على مدخل قصر اميريّ في لندن ، ثم في الجوّ الرسمي الجميل الناعم الذي تمتاز به غرفة من غرف الاستقبال الباريسية ، لاجد أنهم ينسجمون احسن الانسجام مع الموقفين. إن احداً منهم ليس يخسر اي جزء من جلاله او من انطلاقه في ايما محيط مهما يكن فخماً ، او غريبـــاً . إنهم رجالٌ مخوفون ، وان خصومتهم لجديرة بان توقع الرعب في النفوس . أما أنا ، فقد تراءوا ، في عيني ، رجالاً من شعب شقيق .

ولم التقِ نساءهم إلا بعد سنة ، عندما خلونا الى بيت خاصّ ، في دمشق . إن النساء المسلمات الطيبات الأعراق لا يترددن على الفنادق ولا يختلفن اليها . قد يفعلن ذلك في باريس ، او في لندن . أما في دمشق ، فلا . كذلك لا تتناول السيدة المسلمة الطعام مـع زوجها خارج البيت في العالم العربي . فاذا كانت امرأة تقدّميـة ، مثل السيدة مردم ، فقد تستقبل رجلاً هو صديق لزوجها ، عـــلى شريطة ان تكون واثقة فعلاً من أنـــه صديق صدوق لشعبها ، ولكنها تعتصم بعزلتها وتتقنع بحجابها ما دامت لم تتمّ لها تلك الثقة. ومن الجائز أن تكون السيدات السوريات ، غير واثقاتٍ منـا ، حتى ذلك الوقت . لست ادري . ومن هنا صادقت سيدتين منهنّ ، وتوثقت عرى الصداقة بيني وبين واحدة، فقط ، إبان السنة الاولى من مقامي بدمشق . وكانت كلتاهما متمرّدة ، ثورية .

كانت السيدة «عظم» الصغيرة تعتبر، بين سيدات دمشق المسلمات، زعيمة ثورة عـلى الحجاب ، وعلى كل ما يمثله الحجاب . فاذا صحّ

ذلك فالحق انها قادت ثورتها في ابتهاج وتعقّل . لقد عاشت بضع سنوات في باريس . ولقد حسبتها فرنسية عندما تقدمت نحو باب القنصلية البريطانية على متن سيارتها الموصدة ، وارتقت السلم ، في سرعة ، بزيها الوطني الانيق ، وقد لفت رأسها الاسمر الضارب الى الصفرة بعَمرة او شبه عمامة مُحكمة الربط . ولقد اقبلت لتخبر مسز جاردنر ، قرينــــة قنصلنا ، انها على استعداد لان تسهم في حفلتــــها الخيرية . كانت لاهثة ، نشيطة ، وكانت جذّابة فاتنة ، فكنت احاول أن أراها كلمــــا هبطت دمشق . وفي بعض الاحيان ، كانت تقصد الى عاليـــه ، أو بيروت ، وهي تقود سيارتها بنفسها ، في سرعـة فائقة ، عبر الجبال . وكان جمالها يقوم على الخفة وسرعة الحركة والمرح ، ومن هنا لم يكن لها في عالمها نظير . وكان زوجها ، وهو شاب أصابه الفقر ، من أسرة العظم المشهورة ، يسمح لها بأن تعمل ما تشاء . ولم تفكر « حياة العظم » يوماً من الايام في أن تتقنّع بحجاب ، ولو كان صغيراً مصنوعاً من نسيج حريري شفّاف . أما والدها فانتخب في العهـد التركي نائباً عن سوريا في البرلمان العثماني (مجلس المبعوثان) ولم يكن ليظهر أية رغبة في أن يحول بين ابنته وألوان نشاطها غـير المنطقية ، بعض الشيء . وطمحت « حياة » الى إنشاء جمعية باسم « الهلال الأحمر » . أما عمّتها ، السيدة عابد ، فقد كانت منذ زمن بعيد ، على صلة بالصليب الاحمر الفرنسي ، فاعتقدت ان من العسير عليها أن تنفصل تاركة مدام كاترو .

ولم تكن السيدة عابد ثوريّة ، وما كانت لتُعنى أيما عنــاية

باناقتها . كانت عجوزاً ، رثة الثياب ، ساخرة الروح ، متشائمة ، محبة للكلام . وكانت أرملة رجل * انتهى إلى أن يصبح رئيساً للجمهورية في وقت مضى ، وسفيراً في نصف دزّينة من البلدان . لقد عاشت حقبة في لندن وواشنطون دون ان تتعلم كلمتين من الانكليزية ، وانها لتدير عينيها السمراوين الصافيتين عندما تتحدث بنت أخيها ، بطريقتها الحماسية السريعة ، عن الوحدة العربيـــة والاستقلال السوري ، وتقول في فرنسية مهشمة : « انت مخطئة . وانك لخليقة بأن تغيّري رأيك عنـــدما تمتدّ بك الأيام وترين ما رأيت ... »

وكانت صديقتي الثورية الثانية تختلف كل الاختلاف عن « حياة عظم » ، وفي وضع أقلّ سعادة من وضعها بكثير . كانت عَزَبة لم تتزوج وكان لها والد صارمٌ شديدٌ تجلّه أعظم الاجلال . والحق انها لم تكن ثائرة عنيفة ، سواء في السياسة او في الدين ، فهي لا تعنى كثيراً بشؤون السياسة وقضايا الايمان . كانت مسلمـــة ، ولكنها قالت ، ضاحكة ، إن من المتعذّر التزام تعاليم القرآن في العالم الحديث . كيف يستطيع المرء ان يسجد على سجادة ويصلّي ثلاث مرات (كذا) يومياً ، وهو يلبس جورباً من حرير ؟ انها لا تستطيع ان تشك في ايمان اسلافها – فقد كانوا عظماء جداً – ولم تكن راغبة في أن تقطع صلتها بهذا الايمـــان . ولكنها اكتفت بالقول إنها لن تتزوج لأنها لا تريد ان تتزوج من مسلم ، ولأنها لا تستطيع أن تتزوج احداً من غير المسلمين دون ان تقطع قلب أبيها .

---

* هو محمد علي بك العابد .

obeikandi.com

إن الحياة في الاسرة الاسلامية توقع الرعب في النفس ، كذلك قالت . وكان لها عدد من الاخوات وأخ واحد . فهم يعيشون مع والديهم في بيت حديث جميل . وكنت إذا زرتهم نجلس على كراسي رتبت على شكل حلقة واسعة في غرفة الاستقبال ، وعندئذ تتشكى الفتاة الثائرة وتقول : « ولكننا نجلس معاً ، على هذه الشاكلة ، طوال النهار ... ان المرء لايستطيع ان يعيش وحيداً في أسرة كأسرتنا ! »

وعلى الرغم من ذكائها الحادّ ، فقد لاحظت انها ما كانت تُعنى عناية جدية بغير حياتها المقيدة الخائبة والطرائق والوسائل التي تستطيع بها التخلص منها من غير ان تثير أباها ، وتطلق ألسنة الناس في نقدها وتشهيرها . وإنما كان يتم لها ذلك ، عادة ، في سيارة أخيها ، أو في سيارة أجرة ، اذا ما خذلها أخوها . وعندئذ تنطلق هاربة عبر الجبال ، الى بيروت ، في التاكسي . حتى اذا حطت الرحال فيها نزعت حجابها الحريري الشفاف عن رأسها الطفليّ الدقيق وظهرت في ملابس باريزية مخيطة وفقاً للزي الاخير ، وأمضت وقتاً جميلا . وقد ترتدي أحياناً ثوباً صوفياً خفيفاً وحذاء قوياً للمشي لتخرج معنا في رحلة الى الجبال . إنها تبدو اشبه بفتاة اميركية منها بفتاة انكليزية . وإنها لخفيفة ، مرحة الاعطاف ، رشيقة القوام . وان لها ليدين صغيرتين جميلتين ، ورجلين مثلهما . والواقع انها كانت فاتنة . ولست على مثل اليقين من انها لم تكن واهية الاخلاق ، ولكننا ازددنا بها تعلقاً ، مع الايام . لقد مكثت معنا ، مرة ، اسبوعاً بكامله ، فحظيت بنجاح عظيم في حفلة راقصة اقيمت ، فيها

اذكر، في منزل جورج ثابت، حيث ارتدت ثوب رقص ، لا اكمام له ، من الساتين الاصفر الشاحب ، ولكنها ارتاعت عندما وجدت مصوراً يلتقط رسمها مع القوم الراقصين . ولو قد رأى ابوها الى الصورة ، ولو قد بعث بها مخلوق خبيث قذر التفكير محبّ للاذى الى دمشق إذاً لوقع البلاء على رأس الثائرة الصغيرة !

قال دليلنا الى القصر ذي الورود المتعرشة الصفراء ، وهو يطوف بنا في المكان :

« إن السيدة المسلمة لا يمكن ان يجبرها زوجها على الخروج من البيت . ذلك منصوص عليه في عقد زواجها » .

فقلت : « لست افهم . انت تعني أن زوجها لا يستطيع ان يمنعها من الخروج ، أليس كذلك ؟ »

— « لا ، يا سيدتي . انا اعني انه لا يستطيع ان يكرهها على الخروج . إذا رغبت السيدة المسلمة في ان تقضي حياتها كلها في بيتها الخاص دون ان تخرج منه ولو في عربة ، فعندئذ لا يكون في مقدور زوجها ان يعترض » .

— « وهل يرغبن في البقاء دائماً في البيت ؟ »

— « اجل ، يا سيدتي ، تلك كانت العادة في الايام السالفة . وذلك هو السبب في ان كلاً من البيوت القديمة يمتاز بفناء وجنائن تلفّه من اطرافه . إنها رغبة السيد العربي في ان يقدم لامرأته كل ما تحتاج اليه داخل جدران بيتها ، فمن حديقة تتمشى فيها ، تخترقها اشعة الشمس في الشتاء ، وتظللها الافياء في الصيف ، ومن غرف للجو الحار في جانب ، ومقر للشتاء في الجانب الآخر ... »

obeikandl.com

- « الآن فهمت. كنت احسب ان النساء يَتُقنَ الى الخروج من بيوتهن الى العالم، وان ازواجهن هم الذين يخفونهن عن الانظار».

- « اوه ، لا ، لا ، يا سيدتي ، مثل هذا لا يكون في العائلات القديمة » ...

في قرى سوريا ولبنان

واتصلت اتصالا خاصاً بشعب البلاد عن طريق « مستوصفات سبيرز ». كان ثمة خمسة مراكز: الاول في شتورة ، بوادي البقاع ، والثاني في صيدنايا قرب دمشق ، والثالث في سلمية على حافة صحراء تدمر ، والرابع في اللاذقية ، والخامس والاخير في الشمال الاقصى ، في تل تامار ، على نهر الخابور .

كان من اليسير بلوغ المستوصف الذي في صيدنايا، والمستوصف الذي في شتورة. والواقع ان شتورة تقع على الطريق الرئيسي بين بيروت ودمشق ، وَسَطاً بين العاصمتين ، فكثيراً ما كنا نقف سيارتنا، وبخاصة في ايام الشتاء عندما يعوق الثلج والضباب طريقنا في الجبال ، لنتناول الطعام في فندق مسابكي . وكان اذا اعلمناه بحضورنا يوقد لنا ناراً مزمجرة في موقد غرفة طعامه الخاصة (وهي تزدهي بالسجاد الفارسي النفيس) ويعد لنا مجموعة رائعة من المشهيات hors d'œuvre تتألف من الزيتون اليانع ، والفستق وضرب من الجبن الحاد خاص، ولون لذيذ من مآكل البلاد الوطنية كنا نتناوله بالخبز العربي المرقق ، وكأنه الورق الشفاف . وما هي الا دقائق حتى يحضر السمك ، ثم الارانب ... او الحجلان المحمرة، وفطائر

obeikandi.com

كبيرة بالكرتيا المخفوقة ، ومع ذلك كله خمر شهية من الكروم المجاورة . ان مسابكي ، في الحق ، لمضيف عجيب ، كان يثقل سيارتنا بكل لذيذ ، عندما نغادر فندقه ، فمن جرار العسل ، الى سلال البرتقال ... الخ . ولم يكن اقل كرماً مع الشبان العاملين في المستوصف .

إنهم لم يعملوا في شتورة . ولكنهم كانوا يعيشون هناك في بيت حقير خشن ، ويعملون في القرى المتناثرة في ذلك الوادي الجميل . وكثيراً ما كنت ازورهم وأمضي النهار معهم . كان الفلاحون يحملون مرضاهم من مسافات شواسع ، وعلى ظهور الحمير في الاعم الاغلب . والواقع ان بعض هذه القرى تتردّى في فقر مدقع ، وان البؤس والشقاء يعمان سكانها . فالملاريا ، والزحار (الديزانطاريا) والتراخوما تغزو البلاد وتعيث فيها فساداً . ولكن المرء ما كان يعدم ان يرى الى جانب هذه المشاهد البائسة بهجة وحياة . ان الاقسام الداخلية من كثير من هذه البيوت الصغيرة المشيدة باللبن لجميلة فاتنة . فالغرف مدهونة ، في العادة ، باللون الازرق الخفيف ، والجدران محلاة بالصحاف (الصحون) المزخرفة المشرقة . إن الفتيات لجميلات ، غالباً ، وانهن ليرحبن بي في كثير من الرقة واللطف ، ويدعونني الى فنجان من القهوة . حتى اذا قدمتُ لفائف من التبغ ، سعدت العجائز بذلك ، وجلسن في القرب مني ينفثن الدخان في كثير من البشر والابتهاج .

ان في البلاد الاوروبية لخرافة تذهب الى ان العربيّ لا يحب بناته ولا يدللهن . وفي الحق ، ان كل من نفذ الى حياة هذه القرى

obeikandi.com

السورية يعلم علم اليقين ان ذلك غير صحيح . فكم من مرة رأيت فارساً جليلا او رجلا جلفاً على حمار صغير ، يحمل بنته الطفلة الى الى « الحكيم » – اي الطبيب - وينتظر بوجه مخيف ومتأثر، رأيه في صغيرته الثمينة البائسة ، وما اذا كان مقدّراً لها ان تعيش . لقد كان هؤلاء المسلمون الشجعان ارفق ما يكونون بالبُنيّات الصغيرات ، وانه لرفق لا يمكن ان يكون إلا من وحي الحدْب عليهن ، والحب لهن .

وادهشني ذلك ، حتى لقد سألت « أمير ميرزا » في سلمية ما اذا كان صحيحاً ان المسلمين يحبون بناتهن كما يحبون ابناءهم فقال :

« نعم ... أما انا فأحب بنات اولادي باكثر مما أحب حُفدائي الذكور ، لانهن أضعف خَلقاً من اولئك » .

وسلمية بلد الاسماعيليين اتباع آغا خان، و « أمير ميرزا » هو رئيسهم . وانما كنت اقوم مع « روزي » بجولة نتفقد فيها مستوصفاتنا الشمالية ، فبتنا ليلة في بيت علي خان خارج البلدة. لقد وجدنا شباب المستوصف في حالة بائسة . كان قد اقبل على البلدة طبيب عسكري فرنسي ارسلته مدام كاترو ، قائلا انه سينشىء مستوصفاً خاصاً به في القرية ، ومن ثم طاف رجال الدرك بالمنطقة يجمعون الاموال «للمستوصف المتنقل» ، وإذ لم يكن ثمة مستوصف غير مستوصفنا يحمل هذا الاسم فقد تبرع كثير من وجهاء القرى بالمال ، ونفح امير ميرزا نفسُه القائمين على حملة التبرعات بالف ليرة سورية ، حاسباً ان المستوصف مستوصفنا ، حتى اذا اكتشف الحقيقة استشاط غضباً ، وتميز من الغيظ .

وفي ذات يوم استوقف «محافظ» * شباب مستوصفنا وطبيبه ، فيما كانوا يمرون بقريته ، وقال : « لماذا لا تأتون لتقـدموا الادوية إلى أبناء قريتي ؟ »

فأجابه طبيبنا قائلا : « ولكن قريتك لا تقع على الخط الذي رسمناه لاعمالنا . واذا كان اهل قريتك محتاجين الى عناية ، فانت تعرف جيداً ان عليهم ان يقـــدموا الى القرية المجاورة . تلك هي العادة » .

ولكن الوجيه صرخ : « لقد دفعت مالا . لقد قدمت مئة ليرة سورية للدرك ، ووعـدتهم بأن ادفع عشر ليرات ، كل اسبوع ، لكي تستطيعوا ان تأتوا الى قريتنا » .

كان من العسير إعلام القرويين بواقع الحـال . ولعلهم كانوا جديرين ، لولا الأمير ميرزا ، بأن لا يصدقوا الحقيقة ، لأن الطبيب الفرنسي لم يزر قريتهم إلا مرة واحدة ، ولم ينشىء مستوصفه ، في يوم من الايام .

دنيا بيروت

وكان عالم بيروت يختلف كل الاختلاف عن عالم دمشق . وإذ كان اهلها مسيحيين ، أو معتادين الحياة في مجتمع مسيحي ، فقـد سهل عليّ الاتصال بهم والتعرف اليهم .

والواقع ان اولئك الذين اجتمعنا بهم ، أول الأمر ، لم يكونوا

* كذا في الاصل . ولعلها تقصد رئيس البلدية .

هم المتحمسين المتمسكين بقضية الاستقلال . ولكنهم كانوا أفراد تلك الطبقة الغنية التي تعتبر أي مكان في العالم كله وطناً لها ، والتي طالما تطلعت الى فرنسا بوصفها الحكم الأول والأخير في قضايا الذوق ، ومصدر المباهج المترفة الصافية . انهم يتكلمون الفرنسية في فصاحة وطلاقة ، ويتكلمون الانكليزية في صعوبة . وانهم لمعتادون ان يقصدوا الى باريس في كل عـــام ، فأما النساء منهم فلكي يشترين أحدث الاثواب ، وأما الرجال فلكي يشهدوا حفـــلات السباق في « لونشان » Longchamps واوتوي Auteuil . لقد حالت الحرب دون زيارتهم باريس ، فهم الآن سجنـاء في بلادهم ، ضجرون الى أبعد الحدود .

كان رجال هذه الطبقة أصحاب مصارف وممتلكات عقـــارية . إنهم يمتلكون ضيعاً واحراج زيتون ، وحقول قمح واسعة ، ويقال ان بعضهم (وكان يُظن ان اميل اده ، المرشح لرئاسة الجمهورية ، واحد من هؤلاء) يزرعون « الحشيش » . كانوا أغنياء الى درجـة بعيدة ، اذ لم يكونوا يدفعون ضرائب يُعتدّ بها . وكانت تسليتهم الكبرى سباق الخيل ، ولعب الورق ، ولكن قليـلا منهم كانوا يراهنون مراهنات ضخمة . ان فيهم لروحاً طفلية حلوة ، وان في صداقتهم البهيجة لضرباً من البراءة توقع الرضا في النفوس . وليس أيسر من « بخعهم » أو تعنيفهم في تهكم وازدراء . والذي يبدو ان مدام كاترو كانت تجد لذة في تعنيفهم و « بخعهم » . بل لقد كان في استطاعـة مدام دي لارمينا نفسها ان تكون معهم كثيرة الخشونة والفظاظة ...

وتجري في بيروت سباقات للخيل كل أحد ، وفي أيام الأعياد. وانما يقوم ميدان السباق الفاتن وسط اشجار الصنوبر التي تشبه المظلات ، وقد رفعت الجبال قممها المكللة بالثلوج في المدى البعيد . أما الافراس العربيــــة المتسابقة ، فكانت ، في الحق ، مخلوقات صغيرة جميلة .

وتملك الدونا ماريا ميدان السباق ، فهي تستقبلني في مقصورتها كلما قصدت لمشاهدة حفلة من حفلاته . انها امرأة كريمة حسنـة التكوين ، وهي ايطالية من أسرة « كولونا » تزوجت لبنانياً غنياً. لقد كانت ايطالية باكثر من الضرورة ، في تلك الايام ، بالنسبة الى ذوقي . ولم نكن على وداد ووئام ، ولكن لها بنتاً تلقت علومها في انكلترا ، فهي ابداً مع « آنسة » انكليزية تلازمها في كل مكان. والواقــع أن ايفون سرسق كانت قبلة انظار الضباط في الجيش التاسع ، فهم يتبعونها ويجدّون في البحث عنها .

أما النساء المتقدمات في السن ، في هذه الطبقة ، فكنّ يكثرن من لعب الورق ، كالرجال سواء بسواء ، وكنّ يؤثرن لعبــــة « البريدج » ولعبة اخرى يدعونها « البيناكل » . وكانت تقـــام حفلات البريدج النسائية كل يوم بعد الظهر ، اما في العشايا فكنّ يقصدن الى الاجتماع في نادي الطيران . وإنما انشىء هـذا النادي اول ما انشىء لتعزيز الطيران وتشجيعه ولكنه لم يلبث ان انقلب الى ناد للعب الورق . وكنت اذا حظيت بليلة من الفراغ اتلفن لحبيب طراد فينظم لنا رباعياً في الـــنادي ، وكنا نلعب من الساعة التاسعة حتى الساعة الثانيــــة عشرة ليأتينا بعـــد ذلك ،

obeikandl.com

اذا كان الفصل شتاء ، خادم فيقدم لنا شوكولا ساخنة غنيــة ، وشيئاً من الحلوى (البريوش) . وكان رفاقي في البريــــدج ، في الايام الاولى ، لا يكادون يتغيرون ، وهم حبيب طراد ، واخوه ، وأليس صباغ . ان اليس لتدخّن النارجيلة ابداً ، وهي تلعب . والحق ان كثيراً من السيدات كن يدخنّ هـــذه الغلايين المائية . فهي العادة الشرقية الوحيدة التي يتعلقن باهدابها . وحتى ليندا سرسق ، التي ساحت كثيراً في البلاد الغربية ، والتي كانت في اغلب الظن اذكى امرأة في طبقتها ، كانت لا تمل ّ تدخين النارجيلة ، وهي جالسة على « ديوان » او اريكة ، ساعات متطاولة تستغرق بعد الظهر كله .. إن منزلهـــا لمزيج مترف من الشرق والغرب . فالسجاد الثمين يتدلى على جـــدران قاعتها المركزية الكبرى ، واللوحات الدمقسية القديمة تحيط باحدى الغرف ، وقـــد استدار حولها « ديوان » متطاول ، وقامت في وسطها نافورة مـــاء مملوء حوضها ابداً بالازهار العابقة برياها ، بل مملوء الى درجة ان البريجادير كلايتون خطا نحوه دون انتباه ذات ليلة ، فزلت قدمه وغطس في الماء ليضطر بعد ذلك الى ان يستعير زوجين من الفلانيلا من احد افراد الاسرة ! وكانت ليندا صديقـــة للجنرال كاترو وقرينته منذ أيام غرامها الاول ، فهي طبعاً فرنسية الهوى . ولكنها لم تكن تتحدث في قضايا السياسة قط . إنها حصيفة متعقلة ، بل انها مبهمة تكتنفها الاسرار . إن على وجهها لمسحة أثرية . وإنها لتصلح للتصوير على جدران قبر من قبور الفراعنة .

والعجيب ان أليس تويني كانت الوحيـــدة التي تحمل الطابع

obeikandi.com

الفرنسي الصحيح . ولقد نشئت وتلقت دراستها في انكلترا .

كانت أليس عزيزة على قلبنا . انها صغيرة ، سريعة ، ذات صوت عذب عالي الجرس ، فهي اشبه بطائر يغنينا بين الفينة والفينة . وهي تملك بيانو ضخمة يندر مثيلها في بيروت ، ورفوفاً أندر ملأى بالقطع الموسيقية . وكان كلّ من هاميش ماكنزي ، ثالث امناء سرنا، وبرانت بافت ، الذي كان يقوم في تلك الايام بمهمة سياسية في البقاع ، موسيقياً ، فكانا يختلفان دائماً الى منزل آل التويني ليستعيرا قطعاً موسيقية ، او ليعزفا على البيانو الجميل . وكنت اقصد معهما في بعض الاحيان ، فاستمع الى الحان شوبان ، أو باخ.

ومع الايام تعلقت تعلقاً شديداً باصدقائي اللبنانيين وصديقاتي اللبنانيات . ولعلهم لم يكونوا أولي شأن كبير ، بل لعلهم لم يظهروا اي شعور جديّ بمسؤوليتهم نحو شعبهم ، ولكنهم كانوا لطفاء حسّاسين ، وإنهم ليتمتعون بسجايا فاتنة . وإذا كانت النساء منهم يتكلمن كثيراً دون ان يكون في كلامهن الا اقل المعاني ، فليس من شك في ان حديثهن لم يكن قط بعيداً عن اللطف وكرم النفس . فما كان اسرعهن الى الاستجابة لدعوتي كلما سألتهن المساعدة على إعداد صرر عيد الميلاد ، او العناية برجال الجيش البريطاني . إن مكتب مرافقنا العسكري ليحفل عندئذ بمئات من قطع الحلوى ، وإن حفلات الشاي لتقام ، في سخاء لا مزيد عليه ، في جميع القصور على التعاقب .

أما زلفا وكميل شمعون ، وزير لبنان المفوض لدى بلاط سانت جيمس ، في الوقت الذي اكتب فيه هذه الفصول ، فكانا من

ضربٍ آخر . واذكر انهما لم يكونا ، اول ما اجتمعنا بهما ، في سعة من المال والعيش ، عظيمة . ولكنهما كانا يشاطران نسيباً لهما منزلاً في الجبل ، حيث كان بامكانهما ممارسة الصيد ، فسألانا أن نمضي نهاراً في ضيافتهما . إن في منزلهما لفتنةً من مثل تلك التي في البيوت الايرلندية . إنه متداعٍ وبعيد عن التنسيق والترتيب . ولكنه مليء بالبهجة والبشر وبالاطفال ، والكلاب . كان كميل صياداً ماهراً يحب الجبال ، إنه جبليّ Montagnard صميم . وهو يحب بلاده حباً جماً ، يقارب الهيام . لقد نشئت زلفا في الجامعة الاميركية ، اما ابنة عمها الجميلة كاوده تابت فقد نشّأت نفسها في فنّ إثارة المشاعر والعواطف . تلك اسرة ليست فرنسية على الاطلاق ، في اذواقها . على العكس ، فلقد سلخ اخو كاوده الجزء الاعظم من السنوات السبع الخوالي في السجون الفرنسية ، وهي نفسها قد اعتقلت لبضعة اسابيع . لقد كان هؤلاء اول من تعرفت اليه من اللبنانيين الوطنيين المتحمسين ، وإنهم ليعالجون سياستهم في جدٍ ما بعده جدّ .

ولقد بدا لي أن من غير الضروري ، بل من الجنون ، أن اميّز في تلك الحقبة بين اللبنانيين الفرنسيي الهوى ، واللبنانيين البريطاني الهوى . كنا نقضي أيامنا الحلوة إما في جوّ حربيّ وإما في نشاط يقوم على أساس حربيّ . وكانت البلاد تعج بالجيوش البريطانية ، فالمعسكرات الجديدة ، والمطارات الجديدة ، والمستشفيات الواسعة تبنى وتشاد ، وخطوط الدفاع تنشأ على طول الطريق الى دمشق ، والطرق الجديدة تشقّ في كل مكان عبر الجبال . ومن هنا يتضح

أنه لم يكن من مصلحة احد منا أن نختلف ويأخذ بعضنا برقاب بعض.

وكانت مدام كاترو تنصّ في كثير من الاحوال على «أننا يجب ان نظل اصدقاء، يا عزيزتي، وليس من الخير ان نُفسح المجال لسكان البلاد فيعتقدوا أننا على غير اتفاق».

— «ولكننا متفقون. السنا متفقين؟».

واجتمعنا في اطّراد. واذا كانت ثمة أمارات تنبيء بان العواطف التي نتبادلها لم تكن صادرة من صميم النفس، واذا كان الشباب من الضباط الفرنسيين الطيبي النفس، الاصدقاء للضباط البريطانيين الشباب الطيبي النفس أيضاً يُزاحون، الواحد بعد الآخر، من بيروت، واذا كانوا في بعض الأحيان يرغبون في المجيء الى منزلنا فتظهر اسماؤهم غير مرة في سجل زائرينا، ليخسروا بذلك وظائفهم في «السراي الكبير» وليُبعدوا إلى البوادي والقفار — اذا كان ذلك كله حقاً، فلم يكن في مقدوري أن اتّهم، مارجو (اي مدام كاترو) بتقليب صفحات سجل زائرينا للمراقبة والتفتيش.

وإني لنادمة الآن على اني لم اكاشفها بالأمر واسألها إذا كنا اصدقاء فلماذا تقوم بمثل هذه الاعمال، واذا كنا حلفاء فلماذا لا تضع هي وزوجها حداً لكل هذا الحسد والشك اللذين يلفّان بيتنا لفّاً؟ واعتقد ان هذه المكاشفة كانت جديرة بان تفيد. ولكني مع الاسف لم الجأ اليها. والواقع اني لم أشر ابدا إشارة الى مسألة المستوصف في سلمية، بل مررت بها مرّ الكرام، كما مررت بكثير غيرها.

وكنت اذا وجدت متسعاً من الوقت اعرف جيداً كيف أنفقه. فانطلق حيناً الى الجبال، أو إلى نهر بردى، حاملةً معي ادوات الرسم الكاملة، او اقصد الى المرفأ لأستوي على سطح مكتب الحجر الصحي (كارنتينا) واشرع في رسم السفن العائمة المشدودة الى رصيف الشاطيء. أما ادوارد فكان من عادته ان يشاطر روبن هاتشنز قارباً شراعياً صغيراً، وإلا قصدنا الى زيارة بعلبك، أو قلعـة الحصن أو ولينا وجوهنا قِبل وادي ادونيس او قصر بيت الدين العربي المتداعي، حيث عاش لامرتين فترة من زمان. حتى اذا كان الشتاء خرج ادوارد وفرنسيس ستونر للصيد، واقنعت انا « دان لاسلز » بالحضور، لنتنحي بألواننا مكاناً ما، في حين يجري ادوارد ورفيقه وراء الحجلان او دجاج الارض. ولست رسامة بحال. ولكني كنت مضطرة الى ان ارسم. فقد احببت الارض والسماء. وافتتنت بجذوع اشجار الزيتون الملتوية الشيخة، وباشجار اليوكاليبتوس الضخمة بسعفها المتدلية كضفائر الآلهة في الشمس، وبالوديان العميقة المكتنفة بالاسرار، وباشكال جوانبها الصخرية الغريبة، وبالضوء. اجل لقد عشقت هذا الضوء الكامل الناعم الذي يتدفق حولي وخلالي، فيملأ عينيّ بالجمال، وينفخ في جسمي روحاً مُحْيِيَة، فكأنه ينجبس من ينبوع السعادة الصافية.

٤ . من كاترو الى هيللو ...

•

تبدو سنة ١٩٤٣ من خلال صفحات يوميتي سنة حافلة بالاحداث. كان عليّ وعلى ادوارد ان نظل ابداً على سفر ، مترافقين حيناً ، مفترقين حيناً . كانت ثمة مؤتمرات في القاهرة والقدس . وفي شهر شباط (فبراير) دعي ادوارد الى القاهرة ليرى ونستون (تشرشل). واخيراً وجدنا بيتاً في دمشق ، فكنت اذرع الطريق ذهاباً واياباً عبر الحدود الفلسطينية للبحث عن القدور وغيرها من آنية المطبخ في حيفا وتل ابيب . وفي الصيف غادرنا ادوارد الى انكلترا ، تاركاً « دان » ليقوم باعمال المفوضية . ولقد قصدت ثلاث مرات للالتحاق « بالوحدة » ، مرة بطريق البر الى طبرق ، ومرتين بالطائرة الى تونس .

ولقد كنا كثيراً ما نقيم مع السير ما كمايكل وقرينته في بيت الحكومة الجميل بالقدس . كانت مشكلتا فلسطين والمشرق مختلفتين كل الاختلاف ، ولكنهما متشابكتان . ولقد كان ادوارد سعيداً دائماً بان يبحثهما مع هارولد ما كمايكل . واحسب ان بريطانيا العظمى لم تعرف مفوضاً سامياً في تلك البلاد الممزقة المضطربة أكفأ من ما كمايكل الذي انتهج سياسة من الهدوء والروية والاناة.

obeikandi.com

والواقع انني شعرت بالتوتر والخطر حالما اجتزت الحدود ، ولكني لست اعرف الى هذه الساعة ما اذا كان السير هارولد يهودي الهوى او عربي الهوى ، قلبياً . والذي يتراءى لي انه لم يكن يسمح لقلبه بان يتدخل في هذه المشكلة. ولو قد كان أميَلَ الى فريق دون فريق فانه لا يُظهر ذلك ، على التحقيق.

واذكر اننا لم نكن ننوي ان نذهب الى القدس . بل كان من همنا ان نطير الى القاهرة ، واننا انتظرنا الطائرة حتى الدقيقة الاخيرة لنترك بيروت في ساعة متأخرة ، فنصل الى الحدود بعد العتمة . كان الثلج يتساقط في شدة وعنف ، وكان ثمة سيارتان من سيارات الشرطة تنتظران مواكبتنا . واعتقدت أول الامر ان هذا التدبير غير ضروري ، وشرعت أهزأ من هذه الاحتياطات المحكمة. ولكني لم اكن على طرف الصواب. فقد تعرض ماكمايكل لكمين على الطريق نفسها بعد ذلك بقليل . وعندما اغتيل اللورد موين في القاهرة ، احيط ادوارد علماً بأن عليه ان لا يركب سيارته حتى في بيروت ، دونما حماية من البوليس ، لان عصابة « شترن » كانت قد اذاعت انها ستفتك بكبار ممثلي بريطانيا في الشرق الاوسط ، وكان هو (اي زوجي ، ادوارد) الثاني على اللائحة .

ولم تبد على مكمايكل وزوجه ايما امارة من امارات النرفزة او الخوف . كانا ابداً هادئين صادقي المودة . ولكن كان ثمة شيء في الجو يشعر المرء بانه يعيش في قلعه ، فكنت اتساءل اتجد الليدي ماكمايكل متعة في ان تقود سيارتها وحدها ؟ انها لم تخبرني . لقد كانت كثيرة النشاط كرئيسة للصليب الاحمر فهي تقصد الى كل

مكان ، الى تل ابيب ، يافا ، صرفند ، وبيت لحم ، تسوق سيارتها الصغيرة الخاصة بنفسها . صحيح ان وجهها كان يبدو ، لدن عودتها الى البيت ، كالحاً متجهماً ، في بعض الاحيان ، ولكنها لم تكن تشرح لي سبب ذلك . بيد أن أماسينا الى جانب النار ، في غرفة الاستقبال كانت مطمئنة هادئة ، لانها كانت تسمح للايدي ما كما يكن ببضع ساعات تسترخي فيها وتتمتع بترف الشعور بالأمن الكامل .

أما بيت الوزير كايسي وزوجته في « مينا » فكان يختلف من ذلك كل الاختلاف . انه ملك « شستر بتي » الذي اعاره لوزير الدولة عندما قدم اوليفر ليتلتون الى القاهرة لهذه المهمة ، ثم قدمه هذا الاخير لـ « ديك » Dick (اي الوزير كايسي) إنه لم يبن ليكون مقراً رسمياً ، وهو اصغر بكثير من دار السفارة بالقاهرة . بل لقد كان ، في الواقع ، صغيراً جداً ، وحاراً لا يطاق في ايام الصيف . وكان مرتعاً خصيباً للبعوض يعيث فيـــه فساداً . ولست انا من الذين يزعجهم البعوض كثيراً ، فهولا يحبني ... ولكنني شعرت وانا في مينا ، ان هذه المخلوقات تلتهمني التهاماً ، لان الكلل (الناموسيات) التي تحيط بسررنا كانت حافلة بالثقوب . والذي يظهر ان كايسي وزوجته لم يكونا كثيري الاهتمام بهذا الامر . فهما لا يحبان الابهة والاحتفال ، بل ان « ماي » ، قرينة الوزير ، لم تكن تعنى كثيراً بشؤون المنزل .

كانا هادئين مبتهجين ، كريمين سخيين . ولكن مسحـــة من الاهمال كانت تطفو من حولهما . فكثيراً ما كان خدمهما من المصريين يخدعونهما بلا استحياء ، فلا يباليان . ان وقتهما ليضيق عن العنـاية

بالصغائر . وقد تنظر مارجريت جيلروث ، سكرتيرة ماي كايسي ، البهيجة ، في قوائم الحساب (الفواتير) فيأخذها الهم والشك ، حتى اذا حدثت بذلك « ماي » القت بهذه القوائم جانباً وقالت : « نحن نعيش على رأسمالنا ، مهما يكن من الامر » .

لقد صدقت غريزتي في اجتماعي الاول بماي كايسي ، فصرنا صديقتين تسعى كل منا للاتصال بزميلتها جهدها . والواقع ان بيتها في مينا كان مفتوحاً لي ابداً . ولقد كان عليّ ان اتوقف قليلاً في القاهرة في طريقي الى « الوحدة » ، فكنت اعرف كلما استدارت طائرة بيروت لتحط في مطار الماظة انني سأرى وجهاً صغيراً واقفاً في الشمس ، وقد انتشرت رمال مصر المترامية حوله . وهناك كانت هي دائماً ، مليحة ، ظريفة ، لابسة في العادة « تايور » و « تنورة » من حرير دمشق المخطط ، الابيض والبنفسجي (لقد اشترينا الحرير معاً من الاسواق ، ذات مرة) وقد غطت رأسها الاشيب الجعد الشعر ، بقبعة ذات حافة عريضة ، لترحب بي قائلة : « اوه بوي Oh, boy ، ولكني سعيدة برآك » . وانما كانت تتكلم على هذه الشاكلة لتذكرنا ان قلبها كان مع المحاربين الاوستراليين !

وقد ينقلب الامر رأساً على عقب . فقد كان على زوجها « ديك » ، ان يطوف الشرق الاوسط كله ، فهو كثيراً ما يرتحل بالطائرة ، تاركاً اياها عندنا في بيروت او دمشق . وكانت في هذه الحال تتلفن لي قائلة :

- « هالو ، دارلنغ ! سوف يسافر « ديك » الى طهران يوم الثلاثاء ، هل استطيع ان اقيم معكم ثلاثة ايام ؟ »

– « طبعاً ، ذلك جميل منك . سوف نكون في دمشق . »
– « واذاً ، فسأساله ان يُنزلني في مطار المزة . »
– « حسن جداً ! » .

٣

كانت الحال قد تغيرت في هذه الاثناء ، في بلدي المشرق ، سوريا ولبنان . وقد لاحت اول الامر وكأنها توحي باننا مقبلون على مرحلة سعيدة من التعاون مع الفرنسيين. كان الجنرال كاترو قد اطلق الدستور من عقاله في كل من الدولتين وعزم في آذار (مارس) على اجراء انتخابات حرة ، متخلياً عن حقه في تعيين ثلث النواب . فاختار لرئاسة الحكومة الموقتة في سوريا عطا بك الايوبي ، وهو مسلم يتمتع بحظ عظيم من الجلال والصلاح ، في حين اختار لرئاسة الحكومة الموقتة في لبنان طبيباً اسمه ايوب تابت. كان الخبيث المزلي تاج الدين قد توفي . اما الرئيس نقاش فدخل في ظلمات النسيان التي كان قد بزغ من ورائها بعض البزوغ، من قبل.

وسعدَ ادوارد بذلك . لقد لاح له وكأن كاترو عازم على « ان يعمل عملاً » – كما عبر بلغته الخاصة . بيد أن ما ادخل السرور على قلبه بقدر ما ادخلته هذه الظاهرة التي تنبيء بحسن نية زميله الفرنسي، كان ذلك النجاح العظيم الذي أحرزته بعثة سبيرز . ذلك انها وقد انشئت لتساعد الفرنسيين على تنظيم موارد البلاد والافادة منها في الحرب ، واجهت اول ما واجهت صعوبتين عظيمتين . وتفصيل الامر ان الفرنسيين لم يظهروا اي اهتمام او شوق في هذا المشروع

obeikandl.com

الخطير ، وان السوريين ، الذين كان تعاونهم الودي اساسياً ، رفضوا ان يتعاونوا مع الفرنسيين . وعلى الرغم من هذا ، فقد وفقت البعثة الى تحقيق قدر كبير من النجاح . وإنما يرجع ذلك إلى ان ادوارد ما كان يعرف الاستسلام للخذلان والاخفاق . فمن ناحية ، جرّ رجال السراي الكبير الى خططـــه كشركاء ، ومن ناحية ثانية تملّق السوريين واقنعهم ، مصطنعاً التهديد في بعض الاحيان ، بضرورة التعاون مع الضباط الفرنسيين الذين انتشروا في البلاد لجمع الحنطة . وكان في جملة نشاط البعثة اغراض بريطانية خالصة ، منها خطة لبعث صناعة الحرير المشرفة على الهلاك ، وهي صناعة حبيبة على قلب ادوارد . ذلك أن اشجار التوت كانت قد اهملت لتموت ، فكان هذا البحث يقتضينا استيراد اغراس جديدة وتشجيع القرويين. واذكر انني أخبرتُ يوماً ان ادوارد قد اشترى جميـــع انتاج البلاد من خيط الحرير ، وأن حائكي دمشق لم يعد في مقدورهم أن يصنعوا اقمشتهم الحريرية المزركشة . لقد حلّت المظلات (البراشوت) محلّ هذه المنسوجات المشرقة الزاهية !

وكانت المشكلات الاقتصادية معقدة لا تُطـــاق . فنفقات المعيشة آخذة في الارتفاع والتحليق ، والبدو يدّخرون الحنطة ، والسكان في حاجة الى الغذاء . كان ثمة اضطراب من اجل الخبز في دمشق ، ومجاعة بطاطا في كل من مصر وفلسطين . فالحق ان احداً لم يحاول من قبل أن يضبط الانتاج ويصطنع نظام التقنين . ومن هنا احتجنا ، لكي نقوم بذلك كله ، الى خبراء اختصاصيين ، ولقد استدعاهم ادوارد من لندن ، وفلسطين ، والقاهرة .

كان القسم الاقتصادي وحده من بعثة سبيرز عمـــلًا ضخماً . صحيح أن السراي الكبير قدّمت كل ما تستطيـع من مساعدة ولكن معظم العبء كان يجب ان يقع على البعثة، يعني على سبيرز. ولقد جاء وقت كانت فيه مشكلة التضخم النقـدي وضعف القوة الشرائية هي أكبر المشكلات خطورة وإلحاحاً . كان علينا ان نبيع الذهب . واذ لم يكن ثمة جنيهات انكليزية ذهبية فقـــد اضطررنا إلى استيراد سبائك الذهب من لندن . ثم إننا طبقنا نظاماً للتقنين ، بعد ان قمنا باحصاء دقيق للسكان في جميع المدن ، في بيروت ، ودمشق ، وحمص ، وحماه ، وحلب ، وغيرها . ولم يكن لدى الفرنسيين مِلاكٌ كاف من الرجال ، يمكنهم من القيام بهذه الاعباء ، على افتراض انهم رغبوا في ذلك وأرادوه . فـكان على بعثة سبيرز ان تقدّم الرجال ، وعلى الحكومة البريطانيـة أن تقدّم الاموال،وعلى ادوارد ان يتحمل المسؤولية يساعده على ذلك مستشار من موظفي الخزينة البريطانية . وان انسَ احداً فلست انسى الكولونيل هاورد جونس ، خبيرنا الزراعي ، الذي خـدم الارض المشرقية خدمات جلى . والواقع أنه اذا كانت مساحات كبيرة من الارض المجدبة قد انقلبت خصبة منتجة فذلـك بفضل جهوده . كان رجلًا هادئاً لا يتكلم إلا همساً ، او يكاد . وكان يطوّف في حديقتنا ليرى إلى حسن نموّ العشب،ثم ينتقل إلى البقاع أو إلى الجزيرة (الفراتيـــة) ليهمس كلمات الحكمة في آذان الفلاحين المتسائلين ، او ليُغري شيخاً من شيوخ البدو بزراعـــة ضرب جديد من الحبوب .

وكانت مشكلة الحنطـــة كبرى المشكلات ، وكذلك كان حلّها اعظم نصر للبعثة . ففي سنة ١٩٤١ اضطررنا إلى ان نستورد ٨٠٠٠٠٠ طن من الحنطة على بواخر بريطانية لم يكن من اليسير الاستغناء عنهـا ، فاذا بالعجز ينقلب في ١٩٤٣ إلى فائض قدرُه ١٥٠٠٠٠ طن . ولقد اسس ادوارد إدارة مشتركة ، بريطانية – فرنسية – سورية – لبنانية ، دعيت « الميرة » ، للتأكد من حسن توزيع الحبوب وضبط اسعارها ، وعلى رأسها الجـنرال كاترو و(ادوارد) كلجنة ثنائية .حتى اذا اعتدل البارومتر ، آخر الأمر ، نقل الجنرال كاترو الى الجزائر ،وحلّ محله في المشرق المسيو هيللو.

واعتقد ان ذلك الحدث كان فاجعة . ذلك لاني مقتنعة بانـه لو بقي في بيروت إذاً لكان بالامكان اجتناب ازمة تشرين الثـاني (نوفمبر) سنة ١٩٤٣ . ولست ادري ما إذا كان ادوارد ، او « دان » يقراني على ذلك . فأنا اعبّر ههنــــا عن رأيي الشخصيّ ، وحسب . إني اعرف جيداً أن الجنرال كاترو وادوارد كثيراً ما اختلفا ، وأنه كانت ثمة اوقات يبلغ فيها الخلاف بينهما حــــدّ القطيعة ، ولكنهما كانا لا يلبثان ان يتفاهما وينقضي الأمر. فالحق ان الجنرال كاترو كان مرناً بقدر ما كان متصلباً ، ولم يكن كبعض زملائه يخضع خضوعاً أعمى لما قد يُسمّى ، خطأ ، كرامة شخصية ،بل لم يكن من الغيرة الفارغة على « الاعتبار » (Prestige) الفرنسي بحيث لا يتسامح بأيّ جهد يصدر من غير السراي الكبير. كان رجلاً كبيراً مستنيراً ذا خبرة عريضة ، وكان مفاوضاً بارعاً عميقاً . وانه ليمتنع بجاذبية كبيرة . ولقد كتبت في يومياتي ساعة

عرفت انه سيغادر البلاد :

« ٢٣ نيسان (ابريل) . أبرق الجنرال كاترو ، من لندن ، الى زوجته بضرورة الاجتماع بها في الجزائر ».

« انه وادوارد صنوان متنافسان ، وكأنهما في حلبة المبارزة. وأحسب أن ادوارد سيفقد فيه باعثاً من البواعث المحرّكة للعمل ، عندما ينتقل الى شمالي افريقيا » .

وفي ٢٩ نيسان كتبت : « لقد سافرت مدام كاترو الى الجزائر ، لتقضي هناك اسبوعاً واحداً ، فيما تقول .ولكني اعتقد انها وزوجها سينتقلان نهائياً من المشرق ، في وقت قريب، ليخلفه فيه المسيو هيللو . وهيللو انما يأتينا من انقره حيث كان سفيراً لفيشي ...

« سوف اخسر مارجو * . إنها امرأة قصيرة النظر ، عديمة اللباقة ، لا يعتمد عليها ، بل انها المرأة التي بلغت من هذه الصفات ما لم تبلغه امرأة قُدّر لي ان اعمل معها من قبل . ولكنّ كونها ليست محل ثقة واعتماد يجعلها ممتعة . فانت لا تعرف، ابداً ، ما اذا كانت ستلدغك أم انها ستتودد اليك . إن في استطاعتها ان تكون ظريفة ، وفاتنة ، ووحشية في وقت واحد . ان اعمالها الطائشة لمدهشة . والحقّ انك اذا عرفت كيف تفسر كلامها وتفهمه خليقٌ بأن تتعلم شيئاً كثيراً . فانت تدرك في بعض الاحيان انها تخبرك بنقيض الحقيقة تماماً ، وانها في احيان اخرى تنفجر بالحقيقة كلها في سلسلة من القنابل . ولو كان زوجها أقلّ براعة

---

* هي السيدة كاترو

ودهاء مما هو عليه في الواقع إذا لكانت جديرة بان تكون قد حملت اليه الخراب اكثر من عشر مرات ، حتى الآن . ان ميزتها الكبرى هي الحيوية — وهي بذلك تستثير غيرها لأن يعمل . أجل اني آسفة لمغادرتها البلاد . »

*

كان المسيو هيللو وقرينته يختلفان كل الاختلاف عن الجنرال كاترو وقرينته . فهو ضئيل الجسم ضعيفه ، ذو أنف قرمزي ، وصوت حزين ، وابتسامة فاترة لا تفارق شفتيه . أما هي فكانت حسنة التكوين ، مستقيمة جداً ، وليس من شك في انها كانت بارعة الجمال في وقت من الاوقات . والذي اعتقده أنها كانت أبعد ما تكون عن السعادة . وما هي إلا فترة وجيزة حتى اتضح ان المسيو هيللو كان عاجزاً كل العجز عن أن يملأ الفراغ الذي تركه الجنرال كاترو . كان يختفي اياماً — ومعه ذخيرة كبيرة من زجاجات الويسكي ، كما تزعم الاشاعات — تاركاً بوجنر ، وبالين ، ليقوما في السراي الكبير مقامه ومخلّفاً امرأته الفخورة القوية ، وحدها في قصر المندوبية الفرنسية . وهكذا ما لبث بوجنو أن استولى على كل ما هو فرنسيّ بما في ذلك رئيسه البائس ايضاً ، بيديه النحيلتين المتعصبتين تعصباً أعمى على البريطانيين . لقد اخذني الحزن على مدام هيللو ، واستشعرت موجة من الرثاء لها .

٣

ودعا المستر كايسي المجلس الحربي للشرق الاوسط الى الاجتماع في اول نوار (مايو) ، فغادرت بيروت مع ادوارد وحللنا ضيفين

على المستر كايسي وقرينته في مينا اسبوعاً كاملاً . ثم اني التحقت بعد ذلك بالوحدة « في سيدي بوالي » . ولقد تفضل الجنرال برتون قائد القوات الجوية الاميركية في الشرق الاوسط ، فأقلني بطائرته الفخمة حتى القيروان . كانت رحلة ماتعة ، في حالة جوية مخيفة .

وفي ١٦ نوار كتبت في يومياتي : « وصلنا القاهرة منذ اسبوع ومن ذلك الحين حتى الآن لم نعرف دقيقة من هـــدوء . إن معنا كورنواليس وقرينته من بغداد ، والسير ريدر بولارد من طهران ، وماكمايكل وزوجته من القدس ، وستة من القواد العاملين . جامبو ولسون ، والجنرال بلات ، وشولتو دوجلاس ، وجنرال باونال الخ . مآدب كل ليلة ، ومآدب كل يوم . لقد اقام الكسندر كيرك حفلة عشاء اظهر فيها من السخاء وحسن الضيافة ما يُزري بالمشهور عن اي سلطان شرقي . وجلست ماي كايسي الى يمينه . وجلست انا الى يساره . وكانت المائدة المتطاولة شيئاً دراماتيكياً حقاً . »

« الذي اعتقده ان المؤتمر قد انتهى الى نجاح . وقـــد بعث بقراراته الى لندن التي ان تتقبلها بقبول حسن . لماذا لا تستطيع لندن ان تعتمد على الرجـــال العاملين في الديار المقصودة بالدرس عندما يتفقون جميعاً ؟ إن بغداد ، وطهران ، وفلسطين ، ومصر ، والبحر الاحمر لتؤلف كلها مسألة واحـــدة ، عند التحقيق ، لا مسائل متعددات . »

« لقد توقف القتال في شمالي افريقيا امس الاول . سوف اغادر القاهرة إلى تونس غداً ، ولكن القطار قد فاتني ! »

« ٢٠ نوار (مايو) : يبدو ان وضعاً ما كراً قد نشأ بين الفرنسيين

في هذا القسم من العالم ، ويظهر أنهم سيوقعوننا في ورطة مع الاميركيين . إن شعور العداء بين الديغوليين والجيروديين ليؤذن بالانفجار ، وإن الاميركيين ليدعمون ، في الظاهر ، جيرو . وجيرو على مسرح الحوادث (الجزائر) . اما دي غول ، فأين هو ؟ لست ادري ! في لندن ، على ما أحسب . ومع ذلك فان الامداد لتتدفق على الفرنسيين الاحرار في تونس الى درجة ادخلت الهمّ الى نفوس الجيروديين ، ولقد أمر الجنرال ايزنهاور بالتوقف عن إمداد الفرنسيين الاحرار بعد الآن .

« ومما زاد الموقف تعقيداً مانشب من خلاف بين بعض العناصر ذات النفوذ بين الفرنسيين الاحرار فيما يتعلق بالخطة التي يجب ان تُنتهج . كان ثمة اولئك الذين رغبوا فيما يظهر باطراح صليب اللورين واسم « فرنسا الحرة » ليشدوا الفرنسيين جميعاً عصبة واحدة ، في حين كان آخرون لا يثقون بفرنسيي شمالي افريقيا ، فهم على اشد الخوف من ان يوفق ايزنهاور ، او روزفلت ، الى اقناع تشرشل بالتخلي عن دي غول ومساومة فيشي . »

« ولم ينطق دي لارمينا بشيء عندما تناولت طعام الغداء معه . ولكن الكولونيل وجميع الضباط العاملين معنا كانوا على اشد الاهتياج ، وقد صرّح لي مايكل نوكس ان دي غول لن يقدم الى الجزائر الى ان تحين اللحظة السيكولوجية المناسبة . إنه سيستولي على شمالي افريقيا ولو كلف دي لارمينا بالأمر فانه سيحارب . وسألت : يحارب من ؟ فقال ، يحارب الاميركيين ، الجيروديين ، وكلّ انسان . بأي حق يأمر آيزنهاور بوقف الامداد ؟ »

« وجاءت الانباء من الجيش العاشر بأن علينا أن نستعد للسير في الثلاثين من هذا الشهر . إن الجيش الثامن سيتحرك كله في اتجاه طرابلس الغرب ، وسنذهب نحن معه . ولقد اظهر رلنجير ، وفرنييه ، بل لقد اظهر جميع الفرنسيين رغبتهم في البقاء مع الجيش الثامن . ولكن نوكس اطلعني على رسالة بعث بها دي لارمينا الى الجيش العاشر قائلا انه قد تلقى امراً من الجنرال دي غول بالبقاء في تونس، وراجياً ان يعطى جيشه «راحة» شهر على الارض الفرنسية (كذا ...) ولكن السبب الحقيقي كان مسألة الامداد، وعزم دي غول على عدم تسليم تونس الى جيرو » .

وأمس زارتنا مدام كاترو . كانت اولى كلماتها : « يا عزيزتي ! يجب ان تساعديني . لم يعد ثمة جنود ديغوليون . ليس ثمة الا فرنسيون . ان قصة الامداد هذه لقبيحة ، كريهة . يجب ان تنتهي » .

*

لقد نقلت هذه الفقرات من يوميتي لانها تعطي القاريء صورة عن الحالة في شمالي افريقيا ، آنذاك ، وصعوبة مركز الجنرال دي غول . ذلك كان ، فيما اخبروني ، السبب الحقيقي في اصداره الأمر إلى دي لارمينا بالبقاء في تونس بدلاً من اطاعة اوامر الجيش الثامن القاضية بالانتقال الى طرابلس الغرب . ومهما يكن من أمر، فقد قصد بعد ذلك الى طرابلس في اوائل حزيران ، وانتقلت «الوحدة» معه . وبعد ثلاثة أشهر انتهت خدمة الفرقة الفرنسية مع الجيش الثامن . وعندما زرت « الوحدة » مرة ثانية في تشرين الاول (أكتوبر) كان الفرنسيون قد رجعوا الى تونس ، وكانت احداث

كثيرة قد وقعت . لقد ذهب الجيش الثامن . لقد جاز البحر الى صقلية في تموز (يوليو). واعترف الحلفاء في شهر آب (اغسطس) بلجنة التحرير الوطني الفرنسية في الجزائر وعلى رأسها كل من دي غول وجيرو ، وعين الجنرال كاترو حاكما عاماً على الجزائر . ومنحت مدام كاترو كذلك لقب « جنرال » .

ولكن اهم من ذلك كله ، بالنسبة اليّ ، كان براح « بربارا » الوشيك . كانت ستغادر « الوحدة » للخير هذه المرة ، وكانت على وشك الزواج في القاهرة من الماجور براملي . ولقد زارنا الجنرال ماست ، حاكم تونس ، قبيل براحها وعلق على صدرينا معاً « نيشان الافتخار » ، وهو وسام باي تونس ، شاكراً لها خدماتها للجيوش الفرنسية . واحسب انها كانت سعيدة ، ولكنها كانت حفلة صغيرة حزينة بالنسبة لنا جميعاً . فقد كانت بربارا حكيمة ، فكبة تسوس مرؤوسيها دون ان تتظاهر إلا باقل السلطة والنفوذ . وانما كان ذهابها يعني ان ثلاثاً من الفتيات اللواتي عملن معي في فرنسا سنة ١٩٣٩ كنّ لا يزلن قيد الخدمة . ولكن الذي بدا لي ان احداً لا يستطيع ان يملأ الفراغ الذي تركته بربارا كممثلة لي ، ناطقة باسمي . ولقد عهدتُ الى مايكل راونتري بالشؤون المالية ، وكان علي ان القي التبعة العامة على عاتق الكولونيل . ولم يكن الكولونيل سعيداً . فقد تلقى رسالة حملت اليه خبر وفاة زوجته ، التي لم يرها منذ اندلاع الحرب ، في مستشفى بباريس ، وأن اطفاله الاربعة كانوا مع أمه ولكنهم يجب ان ينقلوا الى مكان ما ، ليس يدريه . وكان مقروح الفؤاد ، كسير الجناح ... ولقد قال لي مرة : « اترين

obeikandl.com

كيف كان ذلك ؟... لقـــد ماتت في فرنسا ، وان اولادي لفي فرنسا ، وفرنسا في ايدي الاعداء ...»

بعـد ذلك زارتني جوسلين في خيمتي . كنت اعرف انها تخفي قلقاً شديداً على زوجها ، منـذ وقت طويل . لقد تلقت رسالة من الهند ، تعلمها انه سيذهب في بعثة ، وان عليهـــا ان لا تهتم اذا لم يكتب اليها طوال ثلاثة شهور . ولكن الرسالة قد خطت منذ عام مضى ، ومن ذلك الحين لم تسمع عنه شيئاً. وها هي ذي قد اقبلت عليّ ، في خيمتي لتقول : « لقد صدمت صدمة صغيرة . لقد اعادت دلهي جميع الوسائل التي كنت بعثت بها الى «باسيل» . لقد تسلمتها امس » .واطلقت ضحكة مرتعشة حرّى، ثم استطردت : « إنها لتؤلف حزمة ضخمة ! » .

ولم تنفجر بالبكاء ، ولكنها ارتجفت ارتجافـة خفيفة وتطلعت اليّ ببسمة تشنّج فمها .

.. « أنا اعرف طبعاً ان هـذا لا يعني انه قد مات . إنه يعني فقط انهم لم يروا ايّ حكمة في الاحتفاظ بجميع هذه الرسائل العتيقة. اني لواثقة من انه سيعود ، يوماً من الايام ... ولكنها رعـــدة بسيطة اصابتني .. » واطلقت ضحكة اخرى مرتعشة .

مسكينة جوسلين. إنها لم تسمع قط شيئاً عن باسيل، بعد ذلك.

٥ . مؤامرة في ليل

●

في العاشر من تشرين الثـــاني (نوفمبر) أقمنا في بيروت حفلة عشاء ، على شرف الملك بطرس اليوغوسلافي . كان الجو بعيداً جداً عن الصفاء ، فالحق ان احـداث الايام الثلاثة الماضية كانت خليقة بان تفسد ايا حفلة يشترك فيهـــا الفرنسيون والبريطانيون واللبنانيون ، بعد ان ذهبت جميع آمالنا العذاب في التعـاون مع الفرنسيين ادراج الرياح .

كانت الانتخابات قد جرت في الصيف، وكان الصراع ناشباً منذ ذلك الحين بين الحكومة اللبنانيـة المنتخبة وبين الفرنسيين ، حتى لقد انتهى اليوم الى ازمـة تتهدّد بالخطر سلام المشرق كله . والواقع ان الصراع بلغ ، ذلك الصبـــاح ، ذورته عندما قدمت المندوبية الفرنسية مذكرة رسمية الى رئيس الوزراء اللبناني تعلمه فيها انها قرّرت سحب دعوتها لحكومته الى حضور العرض العسكري الذي سيقام في اليوم التالي احتفالا بهدنة سنة ١٩١٨ . ان وزراءه لن يشهدوا العرض. وما كاد رجال السلك الديبلوماسي يتسامعون بالنبأ حتى اجتمعوا وقرروا الامتناع عن المشاركة في الاحتفـال . وكذلك اتخذ الجيش التاسع قراراً مماثلا .

واذاً فلم تكن الفرصة مواتية للاستمتاع بأمسية مع المندوب الفرنسي وزوجته . ولكن الملك بطرس كان يقيم معها ، في مقر المندوبية الفرنسية .لقد وفد من القاهرة لزيارة المسيو هيللو ،فكان من واجب الوزير البريطاني ان يحتفي به . وهكذا دعونا الى تلك الحفلة الملك الفتى وثلاثة من رجاله ، ومضيفيه مسيو هيللو وقرينته، ومسيوشاتينيو، امين سر المندوبية الفرنسية العام، ومدام شاتينيو، ووزير الخارجية اللبناني السيد تقلا وقرينته . فكان الجميع ، خلا الملك ورجاله ، بعيدين جداً عن روح المرح والابتهاج بالسهرة .

وكان ادوارد بادي الهمّ والقلق . كنت استطيع ان اقرأ امارات ذلك على وجهه وراء الشموع المشتعلة . كان يتحدث الى مدام هيللو عن جود لوب (وهي موطنها فيما اعتقد) وجنوبي فرنسا . وانا اعرف جيداً انه لم يحدثها عن ف .... ، فقد كانت اجنبية ، وان عينيها لباردتان ، تحفلان بالعداء . والواقع انه لم يكن من عادة إدوارد ان يحدث أياً من هؤلاء الفرنسيين الغرباء عن ذلك الموطن الفرنسي الذي فكر يوماً في ان يكون بيتاً له ، والذي تعلم فيه كيف يتكلم لغتهم الدقيقة بأجمل مما يتكلمونها هم . ولست ادري ما اذا كان قد ذكر ايامه القديمة في ف ... ، ذلك المساء ، ولكني ذكرتها . فكرت في القصر الصغير القائم على ضفة النهر الهادىء ، وفكرت في آنا العجوز الطاهية البارعة في تحضير البطاطا « البوريه » ، وفي جاستون بسترته القطنية وقبعته الجميلة ، ثم فكرت في بيتنا الباريسي والغيد الحسان الفخورات اللواتي كن

يتدفقن علينا لمشاركتنا في مزاحنا الصاخب الذي كان يملأ الغرف برنين الضحك . ولم يكن في ميسوري أن أضع مدام هيلو ومدام شاتينيو في اي من هذين الجوين ، فقد كانتا سيدتين ريفيتين . والواقع أننا لم نعرف من بين جميع الفرنسيين في المشرق ، عدا كاترو وزوجه ، من يصلح لمثل معارك المزاح التي اعتدناها في حفلاتنا والتي تجعل المدعوين يضجون في الضحك حتى الاغراب ،ويتكلمون جميعاً في آن واحد دون ان يستطيع احد منهم إتمام جملته . ان هؤلاء الفرنسيين الاستعماريين لا يضحكون . إنهم يغمزون بأعينهم ويضحكون بفتور كسفيرهم المسيو هيلو الذي كان يحدق بي بعينيه الزجاجتين . لقد اختار الجنرال دي غول اناساً هم من الغرابة بمكان بعيد ليمثلوه في المشرق ..!

لا ،لم يكن ادوارد ولم اكن انا سعيدين ذلك المساء . كذلك كان توني ، وهاميش ،وفرنسيس . أما هيلو فلعله كان يستشعر السعادة والابتهاج ما دام قد أعد العدة للمسألة كلها قبل ان يحضر . ولعل خلف الجنرال كاترو هذا الصغير ، الجبان ، السكير كان يجد ارتياحاً غريباً في الجلوس الى مائدتنا والتفكير في المفاجأة التي يخبئها لنا . كان انفه الاحمر الزاهي يرتجف ويرتعش . ايكون التفكير في السنغاليين والرماة البحريين المنتظرين على اتم الاستعداد ، صدور الاشارة اليهم بالعمل ، هو الذي جعل انفه مرتجفاً مرتعشاً ؟ لعل مشهد تقلا ،وهو خالي الذهن تماماً مما سيحل به بعد ساعات قليلة ، وما في ذلك المشهد من فكاهة ، هو المسؤول عن ذلك . والشيء نفسه قد يكون صحيحاً في شاتينيو

الضخم ، اللطيف ، الباسم ، على الرغم من انه انكر فيما بعد ان تكون له معرفة بما كان يدبر ويبيت ولكني اشك في ما اذا كانت زوجتاهما تستمتعان بالفكاهة نفسها ...

وكان سليم تقلا وامرأته اللطيفة رينيه قلقين . أنا اعرف ذلك جيداً . لقد كانا صديقين من اصدقائنا وكان ادوارد يحترم تقلا ويجله إجلالاً كبيراً ، في حين ازددت انا ولوعاً برينيه واعجاباً بها ، مع الايام . كانت هزيلة الجسم ، حساسة ، ذكية ، متواضعة . ولعلهما كانا يفضلان ان لا يحضرا حفلتنا هذه . بيد انه كان من الضروري ان يشهد هو الحفلة. ذلك لانه اذا كانت الحكومة اللبنانية حكومة حقاً ، فيجب ان يكون احد اعضائها حاضراً اذ نكرّم ملكاً من الملوك . وفي مقدور السيد تقلا ان يتجاهل الاهانة الفرنسية لحكومته في منزلنا الذي هوقطعة من الارض الانكليزية. والواقع انه قد فعل ذلك في نجاح كثير . كان وجهه المربع اللطيف هادئاً ، واتجاهه العام متزناً. والواقع اننا تظاهرنا جميعاً ، تظاهراً مرضياً ، بان شيئاً لم يحدث. ولقد لاحت الغرفة بارعة الجمال بهذه الشموع الكثيرة التي اضاءت في الثريات البلورية . كان الملك بطرس يتحدث في بشر ظاهر ، وكان هيللو الصغير منهمكاً في شرب الشامبانيا وقد تجلى له الجنرال دي غول ، في الخيال ، ليمدّه بفيض من الشجاعة ...

وتفصيل ما حدث ان الحكومة اللبنانية قد قامت بسلسلة من الاجراءات لتحقيق الاستقلال الذي كانت قد وُعدت به ، فقابلتها المندوبية الفرنسية بسلسلة من الاجراءات المضادة . وكانت الانتخابات

هي السبب الاول للخلاف . فقد دُعي الجنرال كاترو الى الجزائر قبل ان تقع ، فبرح البلاد تاركاً للمسيو هيللو ان يشرف عليها . وكانت النتائج صدمة عظيمة للفرنسيين وضربة جـدّية لنفوذهم واعتبارهم . ذلك ان الانتخابات كانت حرة ، وكانت ثمة قضيتان كبريان تتصارعان في ميدانها : قضية الاستقلال الوطني ووضع حد للنفوذ الفرنسي ، من جهة ، وقضية عقـد معاهدة مع الفرنسيين والعودة الى شكل ملطف من النظام الانتدابي القديم من جهة ثانية . واذا كانت النتيجة فوزاً ساحقاً للاحزاب الوطنية ، أي للمدافعين عن القضية الاولى ، في كل من سوريا ولبنان .

وزاد في غيظ الفرنسيين ، وخجلهم في الوقت نفسه ، انهم قد قاموا باجراءات فعّالة للتأثير في سير الانتخابات ، ولكنهم اخفقوا . كان الجنرال كاترو قد اصدر قراراً يقضي بحرية الانتخاب بطريق الاقتراع السري . ولكن المسيو هيللو ومعاونه بوجنر لم يرغبا في التقيد بروح هذا القرار . لقد عُبّيء رجال الدين الموالون للفرنسيين وبُعث برجال الامن الى مناطق البلاد كلها قبـل اسبوع من يوم الانتخاب لاقناع الناخبين ، وتهديدهم ، وابتياع ضمائرهم بالرّشى والاموال . ولقد ذهبت الشائعات الى ان الفرنسيين انفقوا خمسين مليوناً من الفرنكات على الحملة الانتخابية ، فكان طبيعياً ان ينكر الفرنسيون هذه الشائعة وان يردّوا عليها بقصة اخذت تنتشر في القرى ، وملخصها ان الوزير البريطاني قد شُوهد يجوب الجبال على صهوة فرس ابيض يحمل اكياساً من الذهب . ولكن الذي لم يستطع الفرنسيون ان ينكروه هو ان عمـلاءهم قضوا الاسبوع

السابق للانتخاب يحضّون الناس على التصويت للمرشحين الفرنسيين وانهم سعوا ، يوم الانتخاب ، الى ان يُقصوا بالقـوّة « مراقبي » الحزب الوطني في مراكز كثيرة ، وانهم عبثوا بصناديق الاقتراع. وكانت النتيجة في جبيل ، وهي منطقة الى شمالي بيروت ، حيث كان لأميل اده نفوذ ، نتيجة مضحكة. فقد كان عدد الناخبين في جبيل ٣٫٧٠٠ ناخب ، وعدد المقترعين ٣٫٧٠٠ مقترع . . . اقتراع كامل بنسبة مئة في المئة ، وقد نال فيـــه المرشحون الموالون للفرنسيين كثرة مطلقة بلغت تسعين في المئة . ومع ذلك ، وبالرغم من هذه الجهود كلها ، فقد اخفق الحزب الفرنسي .

لقد كان الفرنسيون ، اذا استعملنا الطف التعابير ، بُلهاء . كانوا شديدي التوق الى السيطرة على الانتخاب ، فاضطرهم ذلك الى ان يكشفوا القناع كاملا ، ويقفوا صراحة في وجه حقوق الشعب في السيادة. حتى اذا ادركوا في منتصف المعركة ماقد فعلوه سعوا الى التضليل فنعتوا المرشحين الوطنيـــين بالمرشحين البريطانيين . ولكن النتائج لم تكن هذه المرة ايضاً كما توقع الفرنسيون . فقـد كانت الطبقات المثقفة تدرك ان البريطانيين لا يساندون مرشحاً بعينه ، ولا يتدخلون بطريقـة من الطرق في شؤون الانتخابات . أما اولئك القرويون الجاهلون الذين اعتقدوا بأن مرشحيهم الوطنيين كانوا مؤيدين من قِبل البريطانيين ، فلم يسؤهم ذلك ، بل ربطوا ما بين الانكليز وتحقيق آمالهم الوطنية . . .

والواقع ان الدور الذي لعبه البريطانيون في هـــذا الصراع كان بسيطاً جـداً . فقد كانت الجيوش البريطانية منبثّة في

كل مكان من البلاد ، فشجّع وجودها السكان على ان يصوّتوا كما يشاؤون . ذلك كل ما في الامر . ولكن الفرنسيين ، المضطربين الجزعين ، لم يستطيعوا ان يؤمنوا بذلك . وكيف يستطيعون أن يسلموا بانهم مكروهون من الكثرة العظمى من السكان ، حتى في جبل لبنان المسيحي ، وان وجودهم في البلاد ليس موضع الارتياح؟ انهم لا يقرون هذه الحقيقة المريرة حتى هذه الساعة . ولقد احبوا في سنة ١٩٤٣ أن يعتقدوا ان البريطانيين كانوا وراء ذلك كله ، وان هذه الحمى الاستقلالية كانت مؤامرة بريطانية ، وان الوزير البريطاني (الماجور جنرال سير ادوارد سبيرز) كان كبير المتآمرين عليهم ، في البلاد .

ولسوف نرى كيف بُثت هذه الفكرة في كثير من العناية ، وكيف انتهت الى ان تصبح خرافة رحّب بها ، بحماسة فائقة ، مجلس النواب الفرنسي بباريس ، في نوار (مايو) ١٩٤٥ . وقد تكون هذه الفكرة قد حملت الى رجال السراي الكبير الارتياح والرضا سنة ١٩٤٣ ، وقد تكون قد اشبعت غرورهم ، ولكنها على كل حال لم تنقذهم من متاعبهم . ان على المجلس النيابي الجديد ان يلتئم ، وان حكومة جديدة يجب ان تشكل ، في كلا البلدين .

ويقضي العرف في لبنان بأن يكون رئيس الجمهورية مسيحياً ، ورئيس الوزراء مسلماً ، وان توزع الوزارات المختلفة فيما بين المسيحيين والمسلمين والدروز ، بحيث يحظى هؤلاء جميعاً ، في الحكومة ، بتمثيل عادل . واتبع العرف . وانتخب بشاره الخوري وهو ماروني ، رئيساً للجمهورية ، ورياض الصلح ، وهو مسلم ،

رئيساً للوزراء ، وسليم تقلا ، وهو من الروم الكاثوليك ، وزيراً للخارجية ، وهلم جرا . وكان رياض الصلح رجلا نفاه الفرنسيون من البلاد غير مرة ، فهو مشهور بعدائه لهم ، ولكن تقلا لم يكن ليقل عنه صلابة وطنية . والواقع ان هؤلاء الرجال الذين ينتسبون الى مختلف الطوائف في بلاد كان فيها الدين عامل تفرقة وتفسخ منذ اجيال ، اقول ان الواقع ان هؤلاء الرجال ما لبثوا ان بدوا للناس جميعاً ممثلين لأمة موحدة على الاقل بعاطفة عارمة هي الوطنية .

كانت هذه الحكومة ومجلس النواب المنتخب حديثاً هما اللذين عجّلا بالازمة التي افسدت حفلتنا الساهرة في العاشر من تشرين الثاني (نوفمبر). وتفصيل المسألة ان المجلس اتخذ قراراً بالاجماع ، في جلسته المنعقدة في الثامن من ذلك الشهر ، بتعديل الدستور دون موافقة الفرنسيين . ولقد فُهم القرار ، وانما كان في الواقع بادرة من بوادر التحدي ، ولكنه لم يدهش احداً . ان بوجنر والمسيو هيللو كانا تكهنا بما سيقع . كانا يعلمان ، منذ ايام الانتخابات ، ان المجلس الجديد سيكون متعباً . وكان هيللو قد قصد الى الجزائر في مطلع تشرين الثاني لاستشارة لجنة التحرر الوطني ، في اغلب الظن . وكان قد ابرق من القاهرة سائلا رياض الصلح ان يرجىء انعقاد المجلس الى ان يعود ، ولكن المجلس قد اجتمع ، واتخذ النواب قرارهم ، ورجع هيللو في التاسع من تشرين الثاني ليجد ان هذا القرار يوشك ان يُنشر في الصحافة المحلية . وعندئذ نشط هو ، او بوجنر ، الى العمل . فغزيت مكاتب الصحف البيروتية كلها بعد ظهر ١٠ تشرين الثاني من قبل رجال الامن العام ، وصودرت الصحف

جميعاً . وفي الوقت نفسه استردت المندوبية الفرنسية الدعوة التي كانت قد وجهتها الى الحكومة اللبنانية لحضور حفلة العرض العسكري في ١١ منه . وكانت الازمة قائمة ما تزال ، ونحن نجلس للعشاء .

٣

كانت ليلة نابغيّة لا آخر لها ... وانتقل ادوارد بمسيو هيللو إلى ما كنا ندعوه غرفة الاستقبال الخضراء ، عندما انضمّ الرجال إلى السيدات ،وظلا في خلوتهما فترةً خلتها ساعات . وكان عليّ أن أعنى بالملك الفتى وبضيوفنا الآخرين في غرفة الاستقبال القرنفلية يساعدني على ذلـــك توني ، وهاميش، وفرنسيس . لم تكن مهمتي يسيرة سهلة ، ولم يزدها تطاول الليل يسراً وسهولة . كانت مدام هيللو تجلس منتصبة كقطعة من خشب ، وتتكلم شيئاً كثيراً . وكانت مدام شاتينيو نشيطة متشنجة ، أما رينيه تقلا فكانت علائم الاعياء بادية على وجهها .

واصغيت في عسر إلى حديث الملك الفتى الصبياني . وجـــاء الخدم بضروب الخمر . وقدّم توني عصير البرتقال للسيدات . وحمل هاميش الويسكي إلى الرجال . واذكى فرنسيس نار الموقد ، ملقياً فيه قدداً من الخشب جديدة . كان وجه تقلا صفحةً يرتسم عليهـا الألم المتجلد ، الصابر . وكان المسيو شاتينيو يضحك ضحكات عريضة متكاثرة . أما مدام هيللو فمنهمكة في الكلام عـــلى مسرحيات شيكسبير والسير جوشويا رينولدز . . وبسط توني رجليه الطويلتين وطفق يذرع القاعة الكبيرة التي تفصل ما بيننا وبين غرفة الاستقبال

obeikandl.com

الخضراء . كانت الساعة قد جازت الثانية عشرة . وكنت قد اخذت اشعر بالتعب ، فأومأت الى هاميش بان يسعفني بلفافة . فتقدّم إلى جانبي ، وهو يشعل لي عود ثقاب .

وسألته بمسكةً انفاسي : « ماذا يفعل ادوارد ؟ ألا يزال مختلياً بالسفير ؟ »

— « لا . إنهما في القاعة ، خارجاً . لقد انضما إلى اليوغوسلافيين الثلاثة » .

— « انت لا تستطيع ، فيما احسب . . . »

ولاح لي انه محزون ، وقال : « أخشى ان لا اكون ، ايتها اللايدي سبيرز » .

كانت الساعة الواحدة عندما عاد ادوارد والسفير فانضما الينا . واخيراً ، عند الساعة الواحدة والنصف اصدر ضيفنا الملكي أمره بالذهاب . وصحبته وادوارد حتى القاعة الأمامية وقدّم اليه فرنسيس قلماً فوقع اسمه في سجل الزائرين . وتبعه الآخرون في ذلك ، كل بدوره ، ما عدا مسيو شاتينيو وقرينته . حتى اذا انصرفوا جميعاً ولم يبق إلا امينا السرّ قال ادوارد :

« حسناً ، إني اشعر الآن بالارتياح . لقد وعدني هيلو وعدَ شرف بانه لن يُقدم على القيام بشيء يعكّر الأمن والسلام . »

كان من المنتظر ان يكون الزائرون الفرنسيون قد بلغوا منازلهم قبل الساعة الثانية صباحاً بقليل ، وان يصل تقلا وزوجه منزلها بُعيد ذلك . وفي الساعة الثالثة والنصف هاجمت فرقة من الرماة البحريين بيت تقلا ، فاعتقلت الوزير وذهبت به . وكان

الشيء نفسه يقع لرئيس الجمهورية ولباقي اعضاء الحكومة اللبنانية في منازلهم المختلفة . لقد عُهِد إلى الرماة البحريين باعتقال تقلا وكميل شمعون ، في حين تولى السنغاليون يقودهم ضباط فرنسيون ، مهمة اعتقال رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء . وفي طرابلس كانت فرقة اخرى قد اعتقلت النائب عبدالحميد كرامي . وعند الساعة الرابعة صباحاً كان الرئيس وجميع رجال الحكومة ، ما عدا حبيب ابو شهلا ، وزير العدل ، الذي لم يعثر عليه ، ووزير الدفاع الدرزي الامير مجيدارسلان ، قد اعتقلوا وحملوا الى راشيا ، وهي قلعة قديمة في الجبال .

كانت غرفة نومي ملاصقة لغرفة الاستقبال الحمراء ، وكان ثمة باب زجاجي بينهما وعليه ستار . ولقد استيقظت ، فيما لاح لي ، في وسط الليل ، لأن الضوء كان ساطعاً من خلال الستار . وقلت في ذات نفسي : « يا له من إزعاج » ... لقد غفل الخدم عن اطفاء الانوار . هل انهض من فراشي ؟ فأنا ناعسة باكثر مما يجب . واي بأس في ذلك ؟ ، ولكني عدتُ فنهضت ، فاذا بي اجد ادوارد في غرفته يرتدي ثيابه ... كانت الساعة الخامسة .

— « ما الذي حصل ؟ »

— « لقد اعتقل الرئيس وحمل إلى الجبال . وإنما تمّ ذلك في وحشية بالغة . لقد جاء بشارة الخوري الصغير ليخبرني بالحادث . إنه في غرفة الاستقبال . »

— « من الأفضل إذاً ان ألبس . »

— « اجل ، لقد استدعيت « دان » واتصلت بديك كايسي في

القاهرة . ان في استطاعتك ان تتلفني لروبن ، بينا ارتدي ثيابي ، إذا تلطـّفتَ. ليس عليك إلا ان تطلبي الضابط المناوب في البعثة ، وهو يبلغك إياه . »

وتناولت التلفون المحاذي لفراشه. وتابع ادوارد كلامه : «إن الكولونيل إيشام سيأتي من قبل الجيش التاسع وسيفد علينا آخرون . ولسوف نحتاج إلى تناول طعام الصباح والقهوة ، مهما يكن الأمر . »

وكان صوت روبن ناعساً عندما اتصلت به .

— « إني اتلفن إليك باسم الجنرال ، يا روبن . إن ثمة لأحداثاً جساماً . وهو يحب ان تهرع اليه بأسرع ما تستطيع . »

— « حسن . اسمحي لي بعشر دقائق لأرتدي بعض الثياب . »

كان ادوارد يلبس حذاءه عندما تابع كلامه : « لقد اعتقل رجال الحكومة جميعاً ، كما يقول خليل الخوري الصغير. لقد هاجم السنغاليون بيت الرئيس مسلحين بالمسدسات المشحونة والحراب المسدّدة فنزعوا سلاح الحرس اللبناني ، وحطموا الباب الأمامي ، واندفعوا الى غرفة البنت . إنها في الثالثة عشرة — ولقد كانت نائمة . ومن ثم مزقوا بحرابهم كلّتها (ناموسيتها) وسألوها أن تعلمهم بمكان أبيها . كان في فراشه طبعاً . إنه وزوجته يتقاسمان غرفة واحدة . لقد انتزعوه من فراشه ، ووقفوا يراقبونه وهو يرتدي ملابسه ، ولم يسمحوا له ببعض الوقت يُعد فيه حقيبة له ، ثم دفعوه دفعاً شديداً إلى السلم . وكانوا قد القوا القبض ، على « الخوري » الصغير * وسجنوه في

* تعني نجل فخامة الرئيس .

غرفة الحرس ، واخذوا يوجهون اليه إهانات سخيفة كقولهم « ابن الكلب ، ابن الانكليزي » * ، ولكن احدهم أذن له بالخروج بينا كان الرئيس يُدفع دفعاً شديداً على السلم ، وهو (الجندي) يقول مخاطباً رفاقه : « دعوه يرى الرجل الوضيع * » ثم إنهم قادوه إلى ادارة الأمن العام ، حيث اطلقوا سبيله ، فجاء توّاً الى هنا »

وعقد ادوارد رباطي حذائه ونهض : « لقد اندفع الشاب إلى كلتي (ناموسيتي) في الظلام . ولم استطع ان اتبيّنه اول الامر . بعد ذلك اضأت الغرفة . كان ثمة دم على وجهه » ، قال ذلك وانطلق خارجاً .

وانبلج الصباح . وفتحتُ النوافذ ، واخذت حماماً سريعاً ، وارتديت ملابسي . ان بشارة الخوري ليس بالرجل القوي الجسم . انه بدين وضعيف جسمياً . وان مجرد التفكير بانه في ايدي الجنود السود لا يبعث على الاطمئنان .

وعند الساعة السابعة كان بيتنا اشبه شيء بمحطة السكة الحديدية ، فقد احتشد في اطرافه ضباط من الجيش التاسع وبعثة سبيرز ، ومطارنة من الكنيسة المارونية والارثوذكسية ، ونواب ، وصحافيون عرب ، إذ لم يأت احد من رجال الصحافة الفرنسية

*ذلك مثل من امثلة «الذوق» الذي اشتهر به الفرنسيون في هذه البلاد . وليس من شك في أن اهانة من مثل هذه ، تصدر عن قوم من مثل هؤلاء ، في رجل كالرئيس الخوري ، لا يمكن ان تكون عند من يدري ، ويعقل ، ويذوق ، ويعرف ما استهدف له أعلام الرجال في مختلف العصور ومختلف البلاد ، من الاذى والتعريض إلا تشريفاً ، لصاحب الفخامة اللبناني الاول ، بل وساماً دونه الاوسمة جميعاً .

obeikandl.com

طبعاً . والواقع انه لم يسوّد احدمن الفرنسيين ابوابنا ذلك النهار. وصل دان في الساعة السادسة . وتبعه روبن بعد قليل . وكان جورج وودسورث ، الوزير الاميركي ، بين اوائل القادمين . وكان « واديو » ، كبير خدَمِنا ، قد اعد لنا طعام الصباح حوالى الساعة السادسة والنصف في قاعة الطعام . فكان على المائدة قهوة ، وخبز ، وزبدة ، وبيض — ولكن كثيرين لم يجدوا الوقت متسعاً للجلوس اليها ، وهكذا حملنا القهوة الى مستر وودسورث الذي كان يعد برقية في غرفة ، والى دان الذي كان يدوّن قصة خليل (الخوري) في غرفة أخرى. ووفد علينا في الساعة السابعة والنصف مطران بيروت ، المونسنيور خوري* ،ليقول : « لقد اتيت باسم جميع المسيحيين في لبنان لاطلب تدخل البريطانيين المسلح » . ثم جاء المفتي الاكبر ، وعقبه ابو شهلا والامير ارسلان ، الوزيران اللذان لم يعتقلا ، وهما على غاية من الهياج — وكذلك كان معظم الاهلين . وكان امناء السر يروحون ويجيئون ليدعوا ادوارد أو دان او روبن الى التلفون . كانت المحادثة الاولى مع القاهرة ، ثم مع القدس ودمشق ، ثم عادت القاهرة الى الكلام ، وبين الفينة والفينة كنا نسمع ازيز قاذفات القنابل محلقة فوق منزلنا .

ووفدت علينا زلفا شمعون ، في أناة وهدوء ، بعد السابعة بقليل . كانت جميلة بردائها الكتاني الابيض ، وكان شعرها اللطيف ناعماً ، وكان فمها الحلو مخططاً تخطيطاً باهتاً باصبع الحمرة. لقد بَدَت فاتنة ، وكأنها لا تعرف هماً في العالم .

---

* لعل المؤلفة تقصد سيادة المطران مبارك

— « هل القوا القبض على كميل ؟ »

— « اوه ، بلى ! » وارسلت ضحكة صغـــيرة . « لقد طرق الرماة البحريون بابنا عند الساعة الثالثة صباحاً . ولكن الضباط كان جدّ لطيف . لقد طلب الى كميل ان يحمل معه ثيابا ثقيـــلة تتناسب ومُقامه الطويل في جو بارد . لقد اقبلت لاسمع الى نصيحة الجنرال . هل استطيع ان أراه ؟ »

— « طبعاً . ها هو ذا في الزاوية مع مستر وودسورث. »

ووقع نظر ادوارد على السيدة المليحة فتقدم منها .

وقالت له : « لقد جئت لاسألك ما اذا كان عليّ ان ادعو رجال الجبل – انهم جميعاً مسلحون ، ومستعدون – ام ان عليّ ان انتظر » .

وأحسب ان ادوارد ، حتى في وسط هذا التعب وهذا الاضطراب ، قد فوجيء قليلاً بذلك ، ولكنه لم يتردد :

— « انتظري ، يا زلفا . انا انصح لك بان لا تعملي شيئاً . »

— « حسن جداً . » قالت ذلك ، وقفلت راجعة ، وئيدة الخطو ، كما جاءت .

ولم اسمع بما قد حصل في بيت رياض الصلح إلا فيما بعد . كان وزوجـه يعيشان في حي اسلامي ، بعيـد بعض الشيء ، ولم يفد علينـا من يخبرنا خبره ، ولعـــل مردّ ذلك الى انه لم يبق في المنزل احد غير امرأة رئيس الوزراء الشابة ، وأمه ، وبناته الاربع الصغيرات ، والخدم . ولم تقصد السيدة الصلح الى مكتب ادوارد إلا في اليوم التالي لتطلب اليه ان يتدخل . انها مسلمة محافظـة ، وهي تتحـدر من اسرة طيبة ، هي اسرة الجابري . والجابريون

obeikandi.com

اصحاب اراض واسعة في حلب ، واغنيـــاء جداً فيما أحسب ، وشخصيات مرموقة ، في الواقع ، في العالم العربي . والسيدة الصلح لا تمشي في الاسواق سافرة ابدا ، ولاتستقبل اصدقاء زوجها مطلقا . ولكنها استأجرت عربة وقصدت مع حماتها الى البعثـة . حتى اذا بلغت مكتب ادوارد ، رفعت قناعهـــا واخبرته بفرنسية مهشمة كيف اقتحم الجنود السود عليها غرفة نومها ، ليجدوها مع زوجها في الفراش . كان معهم ضابط فرنسي ، وعندما اقتيد رياض الصلح الى السجن امرها ان تفتح جميع خزائنها ، وشرع الجنود يفتشون المنزل . إن السيدة الصلح لشابة ولطيفة ، ذات وجه مستدير عذب ، من الطراز الانكلوسكسوني . لقد روت قصتها في غضب ، وقـد شاع الدم في خدّيها ، في حين جلست السيدة العجوز التي لم تكن تتكلم غير العربية والتركية ، في أناة وصبر ، تراقب وجه ادوارد ، وتهزّ برأسها الثقيل . ويقول ادوارد انه قـــد سكّن روعها ما استطاع الى ذلك سبيلا ، ثم هبط معها درجات السلم العديدة حتى العربة التي كانت في انتظارهما . كان ثمة عريف (كابورال) جالس إلى منضدته عند كل مُنعطف من السلم ، وكان ثمة ضباط يسرعون صعوداً وهبوطا . وعندمـــا خرجت السيدة الصلح من مكتب ادوارد ورأت الى العريف قامت بحركة سريعـة لاسدال الحجاب على وجهها ، ثم رفعته من جـديد ، وتابعت هبوطها السلم سافرة . كانت مجاملة للبريطانيين ودليلا على الثقة كلّفها جهداً .

وجعل اليسوعيون من المسألة كلها موضوع سخرية فاحشة في صحيفة فرنسية بذيئة ظهرت ذلك المساء . ولقـد اخبرنا من نثق

obeikandl.com

بروايته ان الذي كتب المقال كاهنٌ فرنسيّ. وإنما كان من العسير ان نفهم لماذا سمحت السراي الكبير بمثل هذه القاذورات ان تنشر. فالواقع أن قصة اقتحام غرفــــة النوم على سيدة مسلمة كريمة المحتد من قِبل الجنود السود بقيادة ضابط فرنسي لم يكن فيها ما يرفع من اعتبارهم في العالم الاسلامي...

وأدرنا الراديو عند الساعة الثامنة فسمعنا صوتاً يرشح بالحقد الشرّير. كان صوت مسيو هيللو يعلن أنه قــــد عطل الدستور اللبنــــاني، وسرّح المجلس النيابي، واعتقــــل الحكومة، وعيّن اميل اده رئيساً للدولة اللبنانية.

٣

وخطر لي بعد نصف ساعة ان السيدة بشارة الخوري لا بــدّ ان تكون في حالٍ غير حميدة، وانه يجمل بي أن اقصد الى دارها فأراها. ووجدت ادوارد خارجاً من مكتبه فسألته رأيه. فقال: « فكرة حسنة جداً. اذهبي مهما كلّف الأمر ».

وكان بيت الرئيس الخوري لا يبعد إلا مئة يردة عن منزلنــا، ولكن ادوارد طلب اليّ ان اذهب في سيارته وسأل فرنسيس ان يتأكد من ان العَلم البريطاني كان عليها، ذلك لانه قال إن في العَلم وقايةً لي وصيانةً، إذا ما كان في الشوارع اضطراب. والواقع أن كل شيء كان هادئاً، ذلك الصباح، فالأنباء لم تكن قد ذاعت في المدينة، بعدُ. كان في امكاني، لو شاء ادوارد، أن أمشي في يُسر وسهولة، ولكني كنت سعيدة بان يكون معي الكابورال ستيفنسن، سائق ادوارد الأمين الموثوق، لاننا ما كدنا نأخذ في

الانعطاف حول زاوية بيت الرئيس حتى اقبلت سيارة ضخمة تنهب الشارع . وقد غصت بالجنود المسلحين بالمدافع الرشاشة المصوّبة على الشارع ، المهتاجين هياجاً مخوفاً ، الى ابعد الحدود .

ولم يكن ثمة حشدٌ امام بيت الرئيس ، اللهم إلا مجموعة صغيرة من الرجال والنساء الواقفين في هدوء قرب الباب . والباب يقع على الشارع ، وقد امتد وراءه ممر يقود الى سلم ذات درجات حجرية تنتهي عند الباب الأمامي . وإنما تقع غرف المعيشة كلها في الدور (الطابق) الاول ، كما هو الحال في كثير من البيوت اللبنانية ، على ارتفاع حسن من فناء الدار والحديقة . ووراء البيت وعلى مشارفه كانت تقوم ثكنات السنغاليين . وقد لاحظت وأنا أسير في الممر ان على سطح الثكنات قناصة يحملون البنادق الحربية . ولكن شيئاً لم يحدث . ورقيتُ السلم .

وهبط خليل درجات السلم لاستقبالي ، وقادني خلال القاعة الملأى بالناس ، الهادئين جداً ، المرتاعين ، الى غرفة كانت تجلس فيها امه ، وقد احاط بها الانسباء والمقرّبون . وتقدمت مني وتناولت كلتا يديّ وضغطت عليهما فيما كانت تحاول ان تتكلم ، ولكنها لم تستطع اول الامر . والواقع انها لم تقو على إخباري بما قد جرى في ذلك الصباح إلا بعد ان اقبل الخادم بالقهوة . وكان الناس ، في هذه الاثناء ، لا يفتأون يسترقون النظر الينا من خلال الباب ، فكنت اسمع اصواتاً تقول : « إنها اللايدي سبيرز ، أنظر . اللايدي سبيرز قد جاءت . » - كأن مجيئي كان شيئاً عجيباً .

ومكثت ، فيما احسب ، نصف ساعة . حتى إذا نهضتُ لوداعها

كانت شديدة التـــأثر . وتجمهر القوم حولي جميعاً ، بشكل مثير للعواطف الى حد بعيد ، يسألونني ما اذا كنت استطيع ان احمل اليهم توكيداً ما ، يؤذن بأن الرئيس لن يُمس بأذى ، فقلت انني سأرجع في اليوم التالي وادلي اليهم بجميع ما قـــد يكون عندي من الانباء .

كنت قد نسيت اي اهمية تعلقها شعوب الشرق على الزيارات ، ولكني فكرت في ذلك وأنا راجعة الى المنزل ، وفي الفرق الذي بين هؤلاء النساء المنزويات في البيوت ، وبين بناتنـــا الضاربات في في عرض الصحراء . ولكن حسناً ، اذا كانت هذه البادرة الودية التي قمت بها قد عَنتْ ذلك كله بالنسبة اليهنّ فلماذا لا اكرّرها ؟ لم يكن ثمة ما استطيع ان اقوم به في البيت . وفي مقـدوري ان ازور رينيه تقـــلا ، وزلفا (شمعون) . وهكذا كان . وقضيت العشرة الايام التي استغرقتها الازمة في زيارة صديقاتي اللبنانيات ، وبذلك جررت على نفسي بعض الحقد الذي كان الفرنسيون يصبون جامه على زوجي . فقد كان الجنرال دي لافالاد وجيوشه غـــير مرتاحين لتنقلي في الشوارع ، والعلم البريطاني يرفرف على سيارتي.

كانت الشوارع لهم . لقد أخلوها . لقد استولوا عليها . لقـد طردوا منها النساء والاطفال بمدافعهم الرشاشة . حتى الجمال المتكبرة المختالة قد اختفت منهـــا . كانوا يخفرون الطرق اللطيفة الملتوية بسياراتهم الضخمة المحشوة بالمسلحين من الرجال السود . فـــاذا ما تجمهرت فئة من الناس في ايا مكان ، في ساحة الشهداء ، او ساحة النجمة ، او خارج بعثة سبيرز ، اطلقوا نارهم عـلى الجمع . أما اذا

obeikandl.com

كان ثمة اطفال صغار فأصابتهم الطلقات ، أو تهشمت عظامهم تحت عجلات الدبابات ، فلأمهاتهم الهبل « tant pis » . إنها غلطتهم ، وإنهم رعاع « Canaille » على كل حال ، إنهم كلاب يجب ان تداس ، كما قد قال لي مرّة جنرال فرنسي Des chiens à écraser والواقع ان تعبير « الكلاب اللبنانيين » كان تعبيراً عزيزاً علـــى قلوب الفرنسيين الذين اجتمعت بهم في المشرق .

ولكن نساء بيروت كنّ اضعف من ان يقاومنهم ، اولئك النساء اللطيفات الحييات اللواتي ينتسبن الى الشرق المتحجب ، على كل حال ، دون الغرب الصاخب العجاج . لقد خرجت ايفلين بسترس الواهية الضعيفة ، رافعة رأسها الابيض الى العلاء ومشت خلف زلقـــا شمعون و كلوده ثابت ، عبر ساحة الشهداء ، الى شارع كليمنصو ، الى بعثة سبيرز ، ومعهن نجلا زين الدين ، وهي درزية ، وابتهاج قدورة ، ونازك عابد بيهم ، وهنا نجار ، و هنّ مسلمات ، وآنّا ثابت ، ورينـه تقلا حتما ، وامها ، وكثيرات غيرهنّ من حي السراسقـــة الارستوقراطي ، الذي طالما تطلّع الى فرنسا كمثل اعلى للثقافة ، منذ اجيال طوال . لقد اجتمعن اول الامر في منزل زلفـا ، ولم يكن عـددهن كبيراً ، حتى اذا اجتزن الشوارع انضمت اليهن جماعات اخرى . وكانت النساء اللواتي يرين اليهنّ من النوافـــذ يسرعن راكضات نحوهنّ وينتظمن في صفوفهنّ ، وبينهن كثيرات من المسلمات . لقد نفَرْن جميعاً الى الشوارع ذلك اليوم ، مسلمات ودرزيات ، ومسيحيات من الطوائف المارونية ، والارثوذكسية ، والكاثوليكية ، بل ومن الطائفة البريسبيتاريانية – فقـــد كانت

زلفا ، وكاوده من المنتسبات لهذه الكنيسة — حتى اذا بلغن ساحة الشهداء كان عددهن قد اربى على المئات ، فلم يقو رجال الدرك على صدهن ووقفهن ، ولم تجرؤ الجيوش الباسلة... التي كانت قد احتلت المدينة أن تطلق عليهن ّ نارها . وتابعن طريقهن الى حيث يقيم الوزير البريطاني والوزير الاميركي ، ومن ثم الى قناصل مصر وتركيا والعراق ، فبيت المفتي الاكبر . لقد خرجن ثلاث مرات في أيام ثلاثة مختلفات يطلبن الى ممثلي الدول الحليفة ان يبسطوا قضية بلادهن بسطاً عادلا على حكوماتهم . والواقع ان رجال الدرك كانوا يدفعونهن ّ دفعاً عنيفاً ابتغاء تفريقهن ، وانهم حاولوا ان يسدوا عليهن ّ منافذ الطريق . ولكن عندما أمر الفرنسيون رجال الدرك بأن يصوبوا نحوهن ّ انابيب المياه رفض رجال الدرك ذلك — وهكذا لم يُصب بالنار غير الطلبة (ومعظمهم من الجامعة الاميركية) وبعض المقربين الى امرأة الرئيس عندما قصدوا الى الاطمئنان عنها ، وبعض الصبية والاطفال .

لقد صُوبت النار نحو صبي صغير في ساحة الشهداء ، فخر ّ صريعاً لانه كان يمزق صورة من صور الجنرال دي غول ، وفي طرابلس ، داست الدبابات الفرنسية بعض الاطفال ، وآخرون قتلوا وجرحوا في صيدا — وقد رأيتهم فيما بعد في المستشفى البريطاني — وماتت طفلة صغيرة برصاصة اخترقت معدتها ، ولكن عدد القتلى لم يكن كثيراً . فقد بلغ عدد المصابين من اللبنانيين ، فيما احسب ، ثمانين بين قتيل وجريح . وإذاً فلم تكن أزمة لبنان شيئاً ضخماً ، كما ترى ، فهي لا تقارن بما قد حصل في سوريا بعد سنتين من الزمان .

واذا كان اميل اده ، كويسلنج العشرة الايام ، قد آثر ان يجوب الشوارع تحميه دبابة وسيارة مسلحة وراكبو دراجات مسلحون ، فانما آثر ذلك من باب المغالاة في الاحتراز والصيانة .

ولكن الذي يشوقني اكثر ما يكون ، كلما فكرت في تلك الايام ، هو سلوك النساء . فلقد ادهشنني حقاً ، ولست اقصد زلفا وكلوده ، فقد كنت اتوقع ان تكونا شديدتي المراس ، لانهما مجبولتان من نفس المادة التي جبلت بها « دوريا » و « بربارا » و « ت.و » ، ولكني اقصد رينه (تقلا) والسيدة العجوز الصغيرة ، ايفلين بستروس ، وغيرهما من اهل « الحي السرسقي » فقد كنّ ، في الاساس ، نساء حييّات ، حساسات ، يأنفن من الظهور امام الجماهير ، وليس من شك في ان الخروج الى الشوارع والتظاهر امام الناس قد كلفهن شيئاً . أضف الى ذلك انهنّ ما كنّ يعلمن ان الجنود السود الذين يسدّدون مدافعهم الى صدورهن في سياراتهم الضخمة ، لن يطلقوا عليهن النار . وقد تقول انهنّ لم يحققن شيئاً ، وان حكومات الدول العظمى لم تلتفت اليهن ، وانهنّ ، حتى في مركز القيادة العامة بالقاهرة ، قد اعتُبرن ازعاجاً ، وربما هزلا ومزاحاً . ومن يدري ؟ ولكني أعرف انهنّ قد حققن امراً ، وانا اعتقد انه رغم انطفاء جذوة الهياج الاول الجميل ، سيدوم ابداً . لقد حققن الوحدة الوطنية ، وخلقن في البلاد روحاً متحدة ، لست أحسب ان من اليسير اطفاءها .

٦ . عشرة ايام من تشرين

●

واستمرت الازمة عشرة ايام ، اضطر الفرنسيون في ختامها الى ان يرضخوا ، ويعيدوا معتقليهم من الجبال ، فيتولوا مقاليد الأحكام من جديد . لقد هزم الشعب اللبناني الجنرال دي غول . ولكن دي غول في الجزائر ، والجنرال شادبيك دي لافالاد ، قائد جيوش المشرق ، وحتى الضباط الفرنسين المتعقلين الذين قدر لي أن احدثهم في المسألة منذ ذلك الحين ، لم يستطيعوا ان يؤمنوا بهذه الحقيقة . انهم يفضلون ان يعتقدوا ان الذي هزمهم هو الوزير البريطاني .

انا احب الحقيقة . احب ان أقع عليها وان ارويها . لقد التزمتها فيما امليته من هذا الكتاب حتى الان ، وانا اعتزم ان اقولها الآن بقدر ما أقدر على ذلك . لست اقصد الى ان اقول الحقيقة كلها عن الازمة اللبنانية ، فانا لا اعرفها كلها . انا لم اطلع على البرقيات والرسائل السرية مطلقاً . كان ادوارد شديد الصرامة من هذه الناحية . وكان اذا خلونا الى انفسنا ذات ليلة يرجع من مكتبه الى البيت ومعه حقيبة ملأى بالاوراق الرسمية ، فهو يراجعها بعد العشاء ، فيما اقرأ انا كتاباً او اعبث بالراديو . وكان احياناً ينظر

obeikandi.com

اليّ من فوق نظارتيه ويقول : « هل تحبين ان تري هـذه ؟ » ثم يقدم اليّ ملفاً مكتوباً عليه « سري جداً » ، فاذا بها خلاصة انباء الراديو خلال الاسبوعين السالفين !

واذا كنت لم اعرف كل شيء عن جميع الشؤون فكيف استطيع انا او اي انسان غيري ان اقوّم الدور الذي لعبه في توجيه مصير لبنان، او اخمن قدره ؟ ان مستقبله لمنوط الآن بالعالم العربي كله، ولكنه لم يُمهر بعد . فسكان تلك البلاد الصغيرة الجميلة لم يتخلصوا من شر التدخل في شؤونهم المحلية . لقد احرزوا جزءاً من حقهم في السيادة ، ولكن الفرنسيين لا يزالون متمسكين بمركزهم الممتاز في البلاد . كان السادة هيللو ، وبوجنر ، وبالن ، ودي لافالاد قـد ذهبوا . فقد اجرى الفرنسيون تنظيفاً واسعاً في دوائرهم بعـد حادث تشرين الثاني ١٩٤٣ ، ولكن رجالا آخرين كانوا قـد حلوا محلهم . فنزل الجنرال بينه في المقر الفرنسي ، وكثرت مهـام الكونت اوستروروغ في السراي الكبير . والجيوش ؟ حسنـاً ، لقد سلمت الفرق المحلية آخر الامر للحكومة اللبنانية ، ولكن القوات الفرنسية كانت لم تجلُ بعد . والحق ، ان عدداً اضافياً من الوحدات الفرنسية هبط ثغر بـيروت في سنة ١٩٤٥ ، فـكان لهبوطهم آثار تعرفها القيادة العليا في الشرق الاوسط معرفة جيدة . لقد ثارت الفتنة في دمشق ، هذه المرة ، وكانت فتنـة خطيرة الى درجة اضطر معها الجيش الفرنسي الى ان يخرج من البلاد تحت حراسة البريطانيين وحمايتهم . ومع ذلك فلا تزال فرنسا تأمـل في ان تستعيد اعتبارها الضائع في المشرق . انا لم اسامح وادوارد الا في

مطلع كفاح لا يزال دائراً الى الان ، وهو كفاح ما برحت تبعته ملقاة على عاتق زوجي في نظر الفرنسيين وبعض اولئك الذين يدعون انفسهم اصدقاء الفرنسيين .

صحيح انه ناصر شعب لبنان ضد الفرنسيين في ازمة تشرين الثاني سنة ١٩٤٣ ، وصحيح ان الزعماء في سوريا ، وفي لبنان ، وكثيراً غيرهم من الرجال العاديين المغمورين ، قد وفدوا عليه يطلبون المساعدة والنصيحة ، فساعدهم ونصحهم دائماً بالتزام الهدوء واجتناب العنف ، والثقة بان الحكومة البريطانية ستظل عند ضمانها . ذلك كان على كل حال ، عقدة المسألة . كان ادوارد يعمل لانكلترا . وكان يؤيد عدالة قضية العرب، لا لمصلحتهم بل لمصلحتنا. ذلك لان اعتبار بريطانيا العظمى واسمها في طول العالم العربي وعرضه كانا قد أمسيا في خطر. واذا كان في «هوايت هول» من يظن ذلك ذا نتائج بسيطة ، فان الأمر لم يبدُ كذلك للرجال العاملين في مسرح الحوادث نفسها . ومن هنا لم يكن امام الوزير البريطاني في لبنان سبيل غير الذي سلكه . بل لم يكن ثمة صوت مخالفٌ ، فيما اعرف ، بين كبار الموظفين البريطانيين في الشرق الاوسط . كانت القاهرة ، والقدس ، وبغداد ، وطهران ، كلها تقول برأي واحد . إن الفرنسيين قد اثاروا في بيروت ازمة لم تَدَعْ مجالا للتردد ، ولا عذراً يتذرّع به الراغب فيه . ولقد اتفق ان كان الوزير البريطاني في بيروت رجلاً من اولي العزم ، قادراً على اتخاذ القرارات السريعة ، عاجزاً عن ان يسأل نفسه ما إذا كان قيامه بواجبه يورثه المتاعب وانواع البلاء . وهكذا نشط للعمل

في قوة وعزم .

وقال سكان البلاد ، بعد ذلك ، إنه قد انقذهم ، وانـــه لولا وجوده هناك ، لما كان من الممكن أن تعود الحكومة الشرعيـة الى دار الحكم . ولكني أعتقد أنه قد انقـــذ الفرنسيين من اسوأ نتائج عملهم الجنوني ، وانقذ المشرق من إراقـــة دم غزير . وأنا مقتنعة بأن أعظم مآثره كانت إقناع الفرنسيين بضرورة الوضوخ قبل فوات الأوان .

لستُ اقصد الفرنسيين في المشرق . فهؤلاء كانوا قـد اضاعوا صوابهم بالكلية . ولقد كان من العبث ان يحاول اقناع هيللو او دي لافالاد أو بوجنر الكئيب . والواقع أننا لم نسمع قط صراخ هيللو بعد إذاعته في صباح يوم الحادي عشر . ولقـــد انطبع في نفوسنا جميعاً أنه مختبيء في ظلّ زجاجة من الوسكي .أما دي لافالاد الذي بدا وكأنه يعمل على اساس الاعتقاد بأن الفرنسيين كانوا وحدهم في لبنان ، فقد ظلّ على اتصال بالجيش التاسع عندما وجد ان البريطانيين مهتمون بما كان يجري ، ولكنه كان رجلاً أبـله لا حظّ له من روح الفكاهة . ولو قد كان له حظ من روح الفكاهة إذاً لما وَضَع دبابتين صغيرتين عند نهاية خط التراموای الذي يقود إلى سباق الخيل ومقرّ المندوب الفرنسي ، ولـما أحاط اميل اده بمثل هذه الحامية الهائلة من الدبابات والسيارات المصفحة وراكبي الدراجات لتذهب به إلى مكتبه في السراي الصغير . فقـد كان في المدينة نفرٌ قلائل مسلحون. وهم لم يقوموا باية محاولة إلى الهجوم على الثكنات الفرنسية او المقرّ الفرنسي . لقد اغلقوا دكاكينهم

واعلنوا الاضراب . كانت جماهير غفيرة تحتشد في الساحات العامة فيفرّقها الرماة البحريون بمدافعهم الرشاشة . وكان بعض الرجال والصبيان المحتشدين يمزقون بعض صور الجنرال دي غول ، ويشعلون النار في عدد من السيارات الضخمة ، والسيارات المصفحة . ذلك كان محصول العنف الذي قاموا به ، إلا اذا عدّ المرء عنفاً عملَ النساء الشابات عندما شَقَقْنَ طريقهنّ عبر النطاق الذي ضربه رجال الدرك ، عندما مشَيْنَ إلى بعثة سبيرز كوفد يمثّل نسوة البلاد .

ولعل الجنرال دي لافالاد يجيب عن ذلك بان الرعاع كانوا جديرين بالهجوم على الثكنات الفرنسية لو لم يتخذ مثل هذه الاجراءات لمنعهم ، وبأن إظهار القوة كان ضرورياً . ولكن لا هيللو ، ولا دي لافالاد ، ولا اميل اده كانوا يجدون الخطر على حياتهم من زلفا شمعون وكاوده ثابت ، والسيدة بسترس الضعيفة . بل لم تكن القوة العسكرية الفرنسية هي التي اوقفت الجماهير عند حدّها . ولكن نفراً من الشرطة البريطانيين المتجولين في المدينة على صهوات جيادهم كانوا فيما اذكر هم الذين يعيدون الهدوء الى نصابه كلما علا الهتاف واشتد. لقد كاد الأمر يقتصر كله على الهتاف. ولو قد زحف الدروز من الجبال اذاً لكان للمسألة وجه آخر ، ولكنهم لم يفعلوا . لقد هدّدوا بان يفعلوا ذلك ، غير مرة ، خلال العشرة الأيام . وكانت الانباء تصل بين الفينة والفينة إلى المفوضية البريطانية معلنة قرب زحفهم . واذكر ان رسولاً جاءنا مرة في الساعة الثالثة بعد الظهر ليقول ان الدروز سيتحركون الى

بيروت في الساعة الخامسة. وفي كل مرة كان ادوارد ينجح في وقفهم. لقد نزلوا عند نصيحته واحجموا عن القيام باي عمل، وبذلك حقنت الدماء التي سالت في سنة ١٩٢٥.

لا، لم يكن ممثلو فرنسا في المشرق رجالا عاقلين. ولكنهم على كل حال كانوا مجرّد منفذين للجنة الدفاع في الجزائر. لقد تلقى هيللو تعليماته، وكان واضحاً انه يعمل على اساس ما قد تلقى من تعليمات. وعلى الرغم مما بذلت لجنة الجزائر، بعد، من جهد للفرار من المسؤولية فلم يكن ثمة إلا اقل الشك في انها كانت هي المسؤولة. والواقع ان ذلك الرجل البائس الصغير العامل في مسرح الحوادث (نعني هيللو) قد افاد كثيراً من برقية وردت عليه من الجنرال دي غول تقره على مسلكه. لقد نشرها على اعين الصحافة وكأنها راية او علم. بل لقد كان هناك من قال فيما بعد ان المسألة كلها كانت صراعاً بين رجلين قويين: دي غول، والوزير البريطاني في بيروت. قد يكون ذلك. فليس يستطيع احد ان ينكر ان هذين الرجلين اللذين عملا مرة يداً بيد كانا الآن خصمين عنيدين. فأما دي غول فمصمم على ان يضع قدمه على عنق سوريا ولبنان بقطع النظر عن جميع الوعود بالاستقلال، واما سبيرز فمصمم كذلك على ان لا تخلف بلاده وعدها. فكان طبيعياً إذاً ان تنشب المعركة بينهما، ليستسلم احدهما من دون الآخر، وكان طبيعياً ان يُبحث عن ضابط ارتباط، لتستطيع الجزائر وبيروت ان تتحادثا من طريقه. وإنما كانت الجزائر تعني لجنة الدفاع الوطني التي يرئسها دي غول وجيرو نظرياً، ودي غول

وحده واقعياً ، يمثله الجنرال كاترو . اما بيروت فكانت تعني الوزير البريطاني في دولتي المشرق، ووزير الدولة في الشرق الاوسط. وهكذا شاركت القاهرة في المسألة . وتفصيل ذلك ان ادوارد اتصل تلفونياً بديك كايسي صباح الحادي عشر، في الحال . فوصل العاصمة اللبنانية في اليوم التالي، ومكث فيها اربعاً وعشرين ساعة. ثم جاء الجنرال كاترو ورجع ليرفع تقريره الى رئيسه العنيد . ثم نزلا بين ظهرانينا معا ، مرة ثانية . والواقع ان بيروت شهدت في تلك العشرة الايام حركة غير عادية من الذهاب والاياب . وعقدت مؤتمرات عدة في مكتب ادوارد خلف الابواب الموصدة. ولم اسمع ما الذي قيل . كنت اراقب السيارات ، من نافذة غرفة الجلوس، تقبل واحدة بعد اخرى ، فأرى دان وقد وصل ويداه مليئتان بالاوراق ، وارى هاتشنز ، او توني ، او هاميش ، او الكولونيل فيرلونج من رجال القنصلية . ويؤدي الحرس بعد ذلك التحية العسكرية ، فيهبط فرنسيس درجات السلم واذا بي اجد الجنرال كاترو مترجلاً من سيارته ، مؤدياً التحية بدوره . ويغيب وجه القائد الهزيل المتعب في المنزل ، واترك انا وحدي فأنفق الساعات في إدارة إبهامَيْ يديّ إدارة رفيقة حتى تحين الساعة الثالثة ، ويستشعر ادوارد و « ديك » الحاجة الى الطعام . هذا في النهار . أما اذا كان الاجتماع ليلاً فعندئذ نضطر الى ان نتناول طعام العشاء في الساعة العاشرة ، ان اسعفنا الحظ. وقد يحدثني « ديك » ببعض ما قد جرى،وقد أربط ما بين الفقرات المتناثرة في حديثهما، لأكوّن فكرة عن الحال .

وهكذا فليست روايتي عن ازمتنا الصغيرة هي القصة كلها . إنها لا تعدو ان تكون نظرتي المتقطعة جداً الى الاحـداث . وسأرويها بايجاز كما قد دونتها في ذلك الحين ، في يوميتي .

٢

الساعة ١١ ب . ظ ، ١١ تشرين الثاني ٤٣ ،

كانت المدينة هادئة هـذا الصباح ؛ ولكن بعض الاضطراب قد وقع في الشوارع بعد ذلك . كانت المخازن والدكاكين كلها مغلقة ، وجميع المواصلات التلفونية المدنية مقطوعة . لقد عُزِلت القنصلية عزلا كاملا ، وصودرت الصحف جميعاً خـلا الاثنتين اللتين يشرف عليهما الفرنسيون .

ذهبت لأرى زلفا شمعون ، بعد ظهر هذا النهار . كان منزلهـا مكتظاً . كانت هي وكلوده هادئتين ، ولكنهما ضيقتان ذرعاً . قالت كلوده : « يلوح لنا أن الوقت قد حان لدعوة شعبنـــا الى الخروج . الجنرال يريدنا على التزام الهدوء ، ولكننا نشعر بأن هدوءنا قد طال » . واندفع في تلك اللحظة رجل شاحب اللون ، شديد اللهاث ليقول إن النار قد اطلقت على منزل الرئيس ، وان السلالم الخارجية كانت تسيل بالدم . واحدث هذا النبأ في نفوس الحاضرين ذعراً بالغاً وهياجاً عنيفاً حتى لقد وجدتُ انه من الخير لي ان انطلق فأتحقق صحته . وجدت انه صحيح . لقد سال الدم على جانبي السلم المزدوجة ، وعلى طول الممر الى الباب الخارجي . كانت جماهير غفيرة قد احتشدت منذ زيارتي الصباحية . كانت اقرب الى

الذعر منها الى العنف . ما كدت ادخل حتى تعالى الهتاف « لتحي انكلترا ! » ، « ليحي الجنرال سبيرز ! » ، وتواصل التصفيق . شيء مربك حقاً . كانت السيدة بشارة مذعورة . لقد مرّ اميل اده بموكبه المسلح ، فاطلقت القوات التي في السيارات الضخمة نيرانها على الجماهير . وفي الحال استعد السنغاليون المرابطون على سطوح الثكنات المطلة على البيت (بيت الرئيس) وطفقوا يطلقون النار على الباب الامامي وعلى النوافذ . جرح ثلاثة لبنانيين على اعلى السلم ، وقتل فرنسي واحد . واذ كان الدرك اللبناني قد جرد من سلاحه فلم يعد في مقدور السيدة بشاره أن تلجأ اليه بطلب الحماية . كان الفرنسيون هم وحدهم القادرين على منح الحماية ، وكان الفرنسيون هم الذين يقومون باطلاق النار .

سألتها ما اذا كانت تفضل ان ابعث لها بحرس بريطاني يقيها غائلة الليل ، او ان تفد على منزلنا على الرحب . فقالت انها مستعدة لان تفعل كل ما يعتقد الجنرال انه افضل . ذهبت الى المكتب لأستشير ادوارد الذي قال ان من المتعذر ارسال حرس بريطاني ، وطلب الي ان اصطحبها وابناءها الى منزلنا لتبيت عندنا ذلك الليل ، مهما كلف الامر . وهكذا عدت ادراجي وجئت بهم الى هنا .

١٢ تشرين الثاني

اليوم اطلق السنغاليون النار على اربعة أولاد ، في طريقهم الى المدرسة . أعتقد أنهم كانوا يرشقون الحجارة . أذاع راديو المشرق (محطة بيروت) تكذيباً رسمياً يذهب الى ان الفرنسيين لم يستعينوا بالجنود السود . المواصلات التلفونية المدنية لا تزال

منقطعة . أوقفت جميع الدروس في الجامعة الاميركية.

رجعت اسرة بشارة الخوري الى بيتها .

لا تزال قاذفات القنابل تطير فوق المدينة ، على ارتفاع بسيط ولقد ارسل شولتو دوجلاس رسالة الى الفرنسيين نص فيها على ان هذه الطائرات من طراز « بلانهايم » لم تقدم اليهم ابتغاء إرهاب السكان،وانه اذا ما تكرّر ذلك فسيضطر الى ان يقطع المؤن عنهم.

نسيت ان اشير الى ان المدينة كلها تغص برسوم سبتالين ودي غول ، وقد اقترب رأس أحدهما من رأس الآخر ، وكأنما اخذت الصورة لهما معاً . انهما رسمان مستقلان ولكن نسخاً منهما قد الصقت على الجدران والألواح الخشبية وكأن كل زوجين منها تمثلان رسماً واحداً اجتمع فيه الرجلان امام الكاميرا . لقد نُثرت في المدينة كلها إبان الليل الذي جرى فيه اعتقال الرئيسين والوزراء .

ذهبت اليوم لأرى زلفا،مرة ثانية، ورينيه . ان الناس يسألونني جميعاً عن الانباء ، ولا أنباء عندي . انا اقصد الى السيدة بشارة الخوري كل يوم ، لانها شديدة القلق على الرئيس . وفي كل صباح اسأل ادوارد عن الذي استطيع ان اقوله لتهدئة روعها . انه يقول الشيء نفسه ، ابداً : « قولي لها ان لا تجزع ، وانهم لن يمسوا الرئيس بسوء ،وان كل شيء سيجري على ما يرام في وقت قريب»

١٣ تشرين الثاني

اطلق الجند الفرنسي النار على وفد من الطلاب خارج بعثة سبيرز ، هذا الصباح ، فجرحوا ستة منهم . كان ادوارد غائباً عندما وقع ذلك .

obeikandi.com

١٤ تشرين الثاني

وصل ديك كايسي امس الساعة الرابعة ، وغادرنا اليوم عند الظهر . لقد اتصل بكثير من الناس ، وفي جملتهم المفتي الاكبر ، والبطريرك. إنه يشدّ أزرَ ادوارد حتى النهاية. وانا استنتج مما يسمحان بالادلاء الي به ان ردّ الفعل شديد في لندن. إنه لممتع حقاً أن الاحظ مقدار غيرة كايسي، الاوسترالي، على اسم بريطانيا العظمى . إن ونستون (تشرشل) نفسه لا يمكن ان يثور بقدر ما ثار كيسي على الفكرة القائلة بأن علينا أن نغض الطرف عن مسلك حلفائنا الوحشي . ولا يعني ذلك ان احداً قد تقدم بمثل هذا الاقتراح . ولكن انطباعتي هي ان بعض الناس يؤثرون ان يسيروا شوطاً بعيداً نحو التفاهم مع الفرنسيين لو انهم اعطوا الفرصة لذلك . ان همهم هو ايثار العافية ولو كلفنا ذلك ان نبيع جميع اصدقائنا ، وأن نخلف وعدنا ، وان نجعل من جميع العرب في الشرق الاوسط اعداء لبريطانيا . ومثل هؤلاء قد يعتذرون بأننا لا نملك جيوشاً اقرب الينا من تلك التي في فلسطين . كنت احسب ان في البلاد جنداً كثيرين ، ولكن يظهر انهم قد غادروها .

سمعت الآن ان دي لافالاد في القاهرة ، وانه قد صرح في مؤتمر صحفي ان كل شيء يخضع للمراقبة هنا ، ان النظام قد استتب ، ان بيروت هادئة هدوءاً كاملاً ، انه لم تسقط ضحايا على الاطلاق ، وان الفرنسيين لم يستعينوا بالجنود السود ، في أي وقت من الاوقات ! .

☆

١٥ تشرين الثاني

زرت قرينة رياض الصلح بعد ظهر هذا النهـار ، في الحيّ الاسلامي . لقد صفقت الجموع المحتشدة على جانبي الطريق عنـدما رأوا الى راية الاتحاد الانكليزي تخفق على السيارة . كان هاولز يقودها ، وكان يرافقني فيها نائب عريف من البوليس العسكري البريطاني .

تعيش السيدة الصلح في الدور الثاني من البناء . لقد صعد معي نائب العريف بعد ان اغلق الباب الحديدي الذي يقع على الطريق وراءنا . كانت الغرف ملأى بالنساء والاطفال ، وليس فيهـا إلا رجل واحد ، هو الوزير العراقي . قدمت السيدة الصلح اليّ حماتها ، واختها ، وبناتها الاربع الصغيرات ، وتبلغ سن كبراهنّ التاسعة وسنّ صغراهن الثانية ، وسارت بي وسط جموع النساء الى غرفـة جلوس داخلية ذات باب زجاجيّ ، وانتظر نائب العريف المرافق خارج البيت ، على منبسَط من السلم .

لم يمض على جلوسنا خمس دقائق تقريباً حتى سمعنا طلقات النار تلعلع في الشارع ، واندفع نائب العريف ليقول : « لا تجزعا ، انهم بعض الجند الفرنسي يطلقون النار من سياراتهم على الجموع . »

— « ولكن لماذا ايها العريف ؟ ومن أي الجنود هم ؟ »

— « لست ادري ، يا سيـدتي ، ولكن يلوح ان هناك خمس سيارات مشحونة بالرجال . ان معهم ضابطاً فرنسياً ، من رتبـة ماجور .. »

دبّ الذعر في النساء والاطفال . وشرع بعض الاطفـال

يصرخون . وقلتُ ان من الخير ان انطلق . واذا كنت انا السبب في ذلك فاني آسفة جداً . ولكن السيدة صلح قالت إن عليّ ان ابقى لأتناول القهوة. وإذ كان أزيز الرصاص قد انقطع فقد مكثت عشرة دقائق اخرى وشربت قهوتي على تنهدات الاطفال المخنوقة وبكائهم المتقطع. واخذني القلق إذ جال في خاطري ان من الجائز ان يكون بعض الناس قد ُقتلوا او ُجرحوا بسبب مني . ولكن القلق انقلب الى ثورة عندما فكرت ان الفرنسيين كانوا يحاولون ان يطاردوني في الشوارع . كانت ثمة ثلاث دبابات قائمة الى يسار المدخل عندما غادرت المنزل . وكان ضابط فرنسي ذو أربع شرائط يقف غير بعيد من الباب ، وكان جماعة من الجنود السود يضربون نطاقاً ُيمسك الناس على بعد مئة يردة . إن هاولز ينتظر . وهو لم يغادر مكانه من السيارة ، طوال تلك المدة .

سألته عن حاله ، فقال : « حسنٌ جداً ، ياسيدتي . إن الشيء الوحيد الذي أقلقني هو ان الناس تدافعوا الى السيارة عندما بدأ اطلاق النار . لقد ازدحموا جميعاً عليها . »

— « لِمَ فعلوا ذلك ؟ »

— « ليحتموا بالراية »، وتطلّع الى رمزَيْ الاتحاد الانكليزي ثم قال : « حسبتُ انهم سيكسرون « رفاصات » السيارة . »

— « حسن . فلننطلق الى المنزل الآن، اذا تلطفت . »

واحتفظ الضابط ذو الشرائط الاربع بمكانه، فيما كان يجري هذا . وكانت الجموع تراقبنا ، في هدوء كامل ، من خلف النطاق الذي ضربه الجنود . وقال لي هاولز :

« لقد اصدروا امرهم إليّ بأن لا أرجع من الطريق التي جئت منها ، وأن أتوجه نحو شارع البسطة لأنه محروس بالجند الفرنسي »

فقلت : « هراء ! أنا لا أتلقى الأمر من أيّ ضابط فرنسيٍ يتصدر لتعيين الطريق التي ينبغي لي سلوكها . سوف نرجع من حيث جئنا . »

كان من المفروض ان تكون الدبابات «رابطة» في الشوارع ولكنها لم تكن تسدّ منافذها . كان ثمة متسّع لمرورنا ، وهكذا انسللنا من امامهم ومضينا إلى البيت سالكين طريقنا الاولى . والذي يظهر ان الضابط المشار اليه رشا بضعة من صبيان الازقة الواقفين مع الجماهير بخمس ليرات سورية تقدّم لكلّ منهم ، إذا ما رشقوني بالحجارة ، وبصقوا عليّ ، وأنا خارجة من بيت الصلح . لقد رفضوا المال . وقصد اكبرهم سنّاً إلى « البعثة » مع كاوده ، ووقّع نصاً مكتوباً بهذا المعنى . وعند ما سأل ادوارد السائق « هاولز » عن المسألة أجاب قائلا : إنه رأى الفرنسيّ يقدّم المال للصبية ، ولكنه لم يعرف علامَ ذلك . إن الغرض من المناورة واضح بيّن . وتفصيل ذلك إنه لو قد بصق هؤلاء الصغار عليّ ورموني بالحجارة ، إذاً لهجمت الجماهير عليهم ، وعندئذ يتدخل السنغاليون ، وتقع فوضى جميلة ، ويتشكّى دي لافالاد من انني احدثت شَغَباً .

وكان آخر أحداث اليوم ، تلك المحاولة لاغتيال ادوارد ، تلك الليلة ، خارج هذا المنزل تماماً . كان في طريقه الى البيت • فتصدّى للسيارة رجلٌ فرنسيّ طيار ملوّحاً بمسدّس مشحون ، من خلال النافذة . وإذا كان في نيته أن يطلق النار فلم يكن الوقت متسعاً امامه . لقد كان الشرطي العسكري المرافق لادوارد خفيفاً جداً

وسريعاً جداً ، فنزع سلاح الرجل واقتاده الى مركز البوليس .

١٧ تشرين الثاني

نشب القتال في الجبل . لقد أرسل الفرنسيون قوات ودبابات لاعتقال الوزيرين اللبنانيين اللذين لا يزالان طليقين في المنطقة الدرزية (تقصد « بشامون ») فدافع القوم عن انفسهم .

وصل الجنرال كاترو أمس ،وحل في البيت المحاذي للدونا ماريا، في « الحي السرسقي » . لمَ لم ينزل في المقر الفرنسي ؟ان ذلك ليبدو أشبه بصفعة هيللو . إنه — كاترو — يهبط السّلم في هذه اللحظة .

١٨ تشرين الثاني

إن كاترو لا يتزحزح. والذي يبدو أنه قد فوجيء ،عند ما طلب ادوارد ان يرى المعتقلين ، ثم رفض قائلًا : « إذا لم يُسمح لي بحل هذه المسألة بطريقتي الخاصة فليس من شك في ان الجنرال دي غول سيسحب جميع رجاله من لبنان . » تهديد غير قوي جداً ، ما دام الكثيرون يرحّبون بمثل هذه الحركة بوصفها افضل حل ممكن ، ولكنْ لا كاترو ولا دي غول كانا يدركان ، فيما يبدو ، الى اي حدّ كان رجالهما مكروهين في البلاد ، ولا كاترو ولا دي غول كانا يؤمنان بأننا لا نحاول اخراجهم منها . ويخبرني روبن هاتشنز ان دي غول تشكّى له في السنة الماضية « بعثة سبيرز » قائلًا انها تغتصب صلاحيات السراي الكبير ووظائفه . لقد عُيّن روبن رئيساً لقسمنا السياسي ، فقصد الى زيارة دي غول قبل ان يسافر الى بيروت ، وبدلاً من ان يُستقبل استقبالا رسمياً تُلي على مسمعه خطابٌ غاضب . وسأله دي غول : « أي شأن للانكليز في البلاد

حتى يضمنوا استقلال دولتي المشرق ؟ » وعند ما أجابه روبن « كنت أحسب اننا فتحنا البلاد معاً » قال دي غول : « لا علاقة لذلك في المسألة . اننا نحن الذين اعطيناهم حريتهم ، وإن لنا وحدنا ان نعيّن الوقت الذي يصبحون فيه أهلاً لممارستها »

سيرجع ديك (الوزير كايسي) غداً ليجتمع بكاترو . ان الشعور هنا هو هذا : إذا لم يخفف الفرنسيون من غلوائهم ، ويطلقوا سراح الحكومة المعتقلة ، فستقوم في البلاد حالة من الاضطراب لا يمكن ان تقمع بقوة من البوليس البريطاني على صهوات خيولها . لقد التزمت حكومة دمشق جانب السكينة حتى الآن ، ولكنها لا تستطيع أن تستمر على مثل هذا الموقف طويلاً ، وحكومات العراق ومصر وشرقي الاردن كلها تراقب الحال .

ان الشيء الحسن الوحيد هو انه قد صار لدينا جنود في البلاد . لقد اقبل اللواء الموسوم بـ Rifle Brigade من مصر ، ووحدات اخرى معه . انها تخيم خارجاً ، في ميدان الجولف وعلى الشاطىء . فبيروت منطقة محرّمة على الجنود البريطانيين ، باستثناء الحرس في هذا المنزل وفي « البعثة » ، ولكن الناس يعلمون أنهم هنا .

من الجميل السارّ - كما يجب ان اعترف - ان يقوم على حراستنا ، عند الباب الامامي ، جنديان بريطانيان مسلحان بمدفعي « تومي » ، بدلاً من الجندي الفلسطيني الذي كان يقف في كوخ الحراسة ، من قبل . لقد احسست براحة كبرى عندما تولى امر الحراسة افراد من لواء « بريجايد رايفل » ، على الرغم من ان هؤلاء الفتيان المتوردي الوجنات يدوسون باقدامهم مغارس الورود

ويوقعون الفوضى في الحديقة . إن في استطاعتهم ان يعملوا ما يشاؤون - رافقت السعادة قلوبهم ! - ما دمت اسمع الى اصواتهم اللندنية الطرية خارج نافذتي .

السبت ٢٠ تشرين الثاني

اجتماع طويل يعقد في مكتب ادوارد بين كاترو ، ديك كايسي ، وادوارد . المفروض ان لا اعرف شيئاً عما يجري ، وانا لا اعرف شيئاً كثيراً . ان ادوارد داهيـــة كبير ، في الواقع ، ولكني لا استطيع إلا ان اكوّن انطباعاتي الخاصة . وهي ان دي غول عنيد ، وان كاترو يحاول كسب الوقت ، وان الفرنسيين العاملين في البلاد قد اصبحوا في حالة مزاجية بشعة حقاً ، بشعة الى درجة لجأوا معها الى كاترو ليقوم بجميع المفاوضات مهما تكن ، راضين بأن يبحثوا المسألة معنا ، آخر الامر . وهـذا الموقف إنما يؤيـد ما كنت شعرت به عندما جئنا البلاد اول ما جئناها منذ سنتين . ان السلام في هذه البلاد شيء اساسي بالنسبة الينا بسبب من الحرب ولكنه ليس ذا اهمية عندهم ما داموا غير معنيين بالحرب ، وغير مهتمين الا « بالاعتبار prestige » الفرنسي ، وبأحوالهم ومآربهم الخاصة . ان رجالاً مثل مونكلار ليس اعذب في نفوسهم من ان يروا النار تندلع في سوريا ولبنان . إنهم يتوقون الى القتال هنا . إنهم يحبون أن يطلقوا العنان لمدافعهم تخرّب المدينـــة . ومجرّد كوننا نحول بينهم وبين ذلك يهيجهم ويذهب بعقولهم .

الاحد ٢١ تشرين الثاني

جاء كاترو مرة ثانية . امس صباحاً. الذي استنتجه ان المقابلة كانت ادعى الى الامل. كان كاترو قد زار رؤساء الطوائف في البلاد : البطريرك الماروني ، والمفتي الاكبر وغيرهما. وهو يبدو وقد اثّر في نفسه الشعور العارم الذي يغمر البلاد. إنه يلوح مجهداً، خائر العزم ، منهوك القوى. لعله ايقن الآن انه يتعين على الفرنسيين ان يستسلموا...

كانت آخر اشاعة روّجها الفرنسيون ، وقد جاءت من الجزائر، ان الجنرال سبيرز لم يعد وزير بريطانيا المفوّض في سوريا ولبنان وان قائد الجيش قد تسلم مقاليد الامور .

واخبرني احد جواسيسي ان الكولونيل اوليفا روجـه غادر دمشق ليجتمع الى الوزراء في قلعتهم الجبلية ، والتمس منهم، باكياً، ان ينقذوا سمعة فرنسا واعتبارها ، وان ينقذوهم ، هم الفرنسيين، من الجيش التاسع .

يا له من رجل ! عندما تناولنا طعام الغداء معه في السويداء ، لعام خلا ، تحدث الي ّ، والدموع في عينيه ، عن امه التي في فرنسا، وكيف فقدها . إنه كبير السنّ . واحسب انه مصاب بعسر الهضم ، وبالنيور استينيا ، وبعقدة اوديب. * Oedipus complex

٢٢ تشرين الثاني :

كان امس نهاراً متعباً جداً . قضيت النهار بطوله ، تقريباً ، وحدي . إن حركة الهبوط والصعود ناشطة على السلم نشاطاً غريباً. وإن الخدم لعلى اشدّ الهياج بعد ان رأوا الى الذخائر تحمل إلى

* اوديب ، في الميثولوجيا اليونانية ، شاب يهجره ابواه ثم ينتهي به الامر الى ان يقتل اباه ويتزوج من امه. — المعرب —

رجالنا من حاملي البنادق في الفناء الخلفي . ويبدو أن اللفتيننانت إيستن ، قائد حرسنا المقيم في المنزل ، يعتقد بان شيئاً كان على وشك ان يقع ، ولكن الأوامر ما لبثت ان ألغيت . وادوارد في حالة عصبية ، ومن هنا اخشى ان تكون الاحوال جارية على غير ما يُرام . وهذا لا يمكن ان يعني إلا أن وزارة الخارجية البريطانية قد جبنت فهي تأبى ان تقوم بعمل ما ، ما دام الناس هنا ، اي اللبنانيون ، متمسكين بموقفهم ، معتصمين بالهدوء . ولكنهم إنما يعتصمون بالهدوء لانهم يعتمدون على حكومة صاحب الجلالة ، وعلى ادوارد ان يُصلحا الشؤون ، لا لأي سبب آخر . إن ادوارد خليق بان يستقيل من منصبه اذا ما اضطر إلى أن يتخلى عنهم ، لسبب من الاسباب . وماذا يقع بعدُ ؟ ولكني لا استطيع ان اعتقد ان الأمر سينتهي الى مثل هذه المجاهل الغامضة . .

٣

٢٢ تشرين الثاني ايضاً :

كل شيء قد انتهى . لقد رجع الرئيس والوزراء . وتولّت الحكومة زمام الحكم من جديد . يقال إن أميل اده ، قد فرّ الى الجبل . انه نهار صاخبٌ حقاً . اطلاق الرصاص ، والهتاف ، والغناء ، كل ذلك يطرق سمعنا من ناحية بيت الرئيس ، ولكن ادوارد لم يرَ من الخير لي ان أخرج ، ولذلك لم اعرف ، حتى ساعة الظهر ، أن ذلك كله كان تعبيراً عن البهجة والغبطة بعودة المعتقلين .

زرت السيدة بشارة الخوري في الساعة الرابعة . كانت جماهير غفيرة تسدّ منافذ الطريق ، ولكن رجال الدرك افسحوا للسيارة

obeikandi.com

عندما رأوا العلم البريطاني يخفق عليها . البيت مكتظ بمن فيه . بيد أنهم قادوني الى حيث كانت السيدة بشارة الخوري التي قالت إنها لن تنسى ابداً ما فعلتُه من اجلهم جميعاً . اني مُعجبة بهذه السيدة . لقد أظهرت ثباتاً على المبدأ . والواقع انها كانت تخشى ان يقتلوا بشارة ، ولكنها قالت لي ، غير مرة ، إبان هذه الايام ، انها تفضل كل شيء على الاستسلام او الرضا بتسوية او حلّ وسط . وكان ثمة حلّ وسط ، فيما يبدو ، على أساس عَرض فرنسي يقضي باطلاق سراح الوزراء، شرط أن لا يعودوا الى كراسي الحكم . ولكن احداً لا يقبل بذلك .

لم يعامل المعتقلون معاملة وحشية في قلعتهم . ولكن من غير المرغوب فيه طبعاً أن يُغلق على الانسان في غرفة مموّهة النوافذ بحيث لا يستطيع الناظر ان يرى الى ما وراءها . كانت الأنباء الوحيدة التي وصلتهم هي تلك التي يحملها اليهم الطهاة والخدم . ان كميل (شمعون) لينظر الى المسألة كلها نظرته الى دعابة او فكاهة ولكنه يغلي على نار . اما كرامي فكان من نصيبه ان يلقى شراً مما لقوا جميعاً . ذلك انهم ضربوه بعقب احدى بنادقهم،ولم يسمحوا له،ساعة اعتقلوه،بقليل من الوقت يرتدي خلاله ثيابه،او يبحث عن أسنانه ، فخلّفها وراءه في طرابلس ... مسكين كرامي ! انه رجل جليل متقدم في السنّ، وهو يلوح أشبه شيء برجل ايرلندي . اني استطيع ان أتخيله بشعره الابيض ، المتداخل في غير نظام ، يصل الى السجن الجبليّ في بيجامة النوم ! ..

ان هؤلاء الناس ليشبهوننا باكثر جداً مما يظنّ اي انسان في

انكلترا . ان اسماءهم العربية لتجعلهم يبدون غرباء بالنسبة الى اولئك الذين لا يعرفونهم . وانا احسّ الآن انني اعرف كثيراً منهم . وانا اجد ان لهم نفس الارجاع الانفعالية ونفس الافكار التي لي شخصياً في موضوع اللياقة والأدب . وفي الحق اني افهمهم أحسن مما افهم كثيراً من البريطانيين . فهم جَذِلون ، عفويّون بعيدون عن التكلف ، حساسون ، زاخرون بالحركة والنشاط ، في حين ان البريطانيين مكتئبون ، خاملون ، يُخضعون حساسيتهم لأشد الضبط والمراقبة حتى ليبدون اشبه شيء بقطع الحطب الضخمة .

اجل لقد انتهى كل شيء ، ولكن متاعبنا ومتاعبهم إنما بدأت اليوم .

فالفرنسيون العاملون في هذه البلاد لم يتعلموا من هذه الاحداث شيئاً . انهم لا يستطيعون ان يسلموا بانهم قد جروا هذا البلاء كله على انفسهم بطيشهم هم ، اولاً وآخراً . وهكذا ينحون باللائمة على ادوارد في كل شيء . والواقع ان الزعم بان المسألة كلها كانت من صنع سبيرز شيء هين ميسور ، يحمل الى نفوسهم بعض الارتياح موقتاً ، ولكنه جدير بان يورثهم متاعب جدية في المستقبل .

ويبدو ان هناك شيئاً واحداً لاشك فيه ، وهو انهم لن يغتفروا لادوارد موقفه ، كما يظهر ايضاً انهم يضمرون لكاترو حقداً لا يقل عن حقدهم على سبيرز . فلعل كاترو هو الرجل الفرنسي الوحيد ، بين العاملين في سوريا ولبنان ، الذي انتهى الى تقدير عاقل للوضع ، وفهم انه ليس امام رجاله الا واحد من امرين : ان يرضخوا ، او ان يرحلوا عن البلاد بقضّهم وقضيضهم . ولقد اختار الرضوخ . حتى

اذا قرر ذلك ، لقي عنتاً كبيراً في اعلان موقفه وتوضيحه . لم يعد ثمة شك او غموض . فالاستسلام كان كاملا . ولقد اذاع بيانا تعهد فيه بأن جميع الصلاحيات سوف تنقل الى الحكومة المحلية ، شيئاً بعد شيء ، وان الجيش المحلي سوف يسلم الى السلطات الوطنية بناء على اتفاق يعقد في العاجل القريب .

وذلك شيء حسن ، ولقد كان ضروريا ، ولكنه غير سعيد بما قد فعل . وكيف يكون سعيداً ؟ لقد ادّى مهمة كريهة جداً في كثير من البراعة . لقد انقذ البقية الباقية من الاعتبار الفرنسي ، ولن يحظى من ديغول بكلمة ثناء ، في حين ان مواطنيه في سوريا ولبنان يعلنون انه قد خان امته وباعها ...

٢٣ تشرين الثاني

في هـذه اللحظة جاء ادوارد ليقول إن كاترو بعث اليه برسالة يحذّره فيها من مؤامرة يدبرها بعض الفرنسيين هنـا ، للتخلص منهما معا .

إنهم يتحدثون في السراي الكبير ، حديثاً عجيباً. يتحدثون عن المعاهدة، المعاهدة الشهيرة التي كانت موضوع الانتخابات. لم يكد الرئيس البائس العالي السن يجد الوقت بعد ليعانق اطفاله، ولما تمضَ اربع وعشرون ساعة على عودة الوزراء الى بيوتهم ، ومع ذلك فها هم سجانوهم يقترحون عليهم ان يوقعوا معاهـدة تعترف بمركزهم الممتاز في البلاد ...!

٢٩ تشرين الثاني

تعقبت رجعة الحكومة « عملية تطهير » عام . لقد ولى هيللو ،

obeikandi.com

وبوجنر ، وبالين ،وجوتييه الادبار . وسيمضي دي لافالاد في سبيله ايضاً .

ما الذي سينتج عن ذلك كله ؟ لقد ابتعدت الحرب عن هذه البلاد الآن . وان جميع القضايا الكبرى لتقرر في مكان آخر . ليس في الوطن (انكلترا) رجل يهتم بقضايا العرب . ولسوف لا يحظى ادوارد ، مهما حدث ، بالشكر على ما قد فعل هنا . . . والفرنسيون هنا ، وفي الجزائر طبعاً ، يسعون للفتك به !

هل احزنه ذلك ؟ هل بالى به ؟ لا ، في الواقع . ولكنه كان يحب فرنسا ، وعندما انقلبت فرنسا علينا كان ثمة دي غول والفرنسيون الاحرار . اما الآن فقد فعل دي غول ذلك كله ، وليس ثمة احد .

٤

إن في نفسي لسؤالا يضج طالباً الجواب . انا لا استطيع ان اهمله اكثر مما فعلت . ما الذي سوف اعمله فيما يتعلق بالمستشفى ؟ لقد جهزتُ المستشفى وقدمته للفرنسيين الاحرار . إن هذا العمل ليبدو لي الآن شيئاً عجيباً ما كان يجب أن يكون ، ولكنني فعلت ذلك ، ولا ازال الى اليوم رئيسة المستشفى الفخرية . إنه يحمل اسمي — او على الاصح ، اسم الوزير البريطاني المفوض في بيروت . هل أستطيع أن اثابر على ذلك ؟ هل كنت راغبة في ذلك ؟ أليس من الافضل أن أقطع صلتي بالقوات الفرنسية ؟

وإذا فعلت ، فما الذي يقع للفتيات والفتيان العاملين في المستشفى ؟

إن الفتيان قد يتابعون العمل مع الكولونيل ، ولعل بعض الفتيات يفعلن ذلك أيضاً . إن المرء لا يستطيع ان يتنبأ بما سيفعلونه . ومن جهة ثانية ، فقد لا يرغب الكولونيل في الاحتفاظ بهم . ان كثيراً من الاعضاء القدماء غادروا المستشفى . ولكن «بيدي» و«راشيل» و « أريس » قد جئن بناء على رغبة مني ، كما جاءت جوسلين من قبل.

كنت في حالة كئيبة ، وكنت أحمل همّ هذا المستشفى وأناقش فكرة البقاء أو الانقطاع فيما بيني وبين نفسي ، يوماً بعد يوم .

كيف أستطيع أن اتابع العمل مع الفرنسيين ؟ إن الفرنسيين كما قد قُدّر لي أن أعرفهم في سوريا ولبنان لا يستحقون ذلك . وهم يكرهوننا . إن أصدقاءنا لم يدعوا لنا مجالاً للشك في هـذا . وإنهم يشنون حملة من الهمس والوشوشة ضد زوجي . هذه الاشاعات تقول بان دي غول قد طلب استدعاءه من البلاد وانه قد استدعي فعلا وان خلفه في طريقه الى منصبه ، وان بعثة سبيرز على وشك ان تغلق ابوابها . كانت بيروت تعجّ بالاشاعات المغرضة . وأما فيما يتعلق بي شخصياً ، فاجتزىء بالقول إنه عندما لاحظ احد الاصدقاء في السراي الكبير أنه كان من الممكن جداً ان اصاب في ذلك النهار الذي طوّقت فيه القوة العسكرية بيت قرينة رياض الصلح كان الجواب الفرنسي أنني لو قُتلت إذاً لكان ذلك شيئاً حسناً جداً.

وخرجت أتمشى وافكر في ذلك . إن رجلاً فرنسياً ، ومن الجائز ان يكون ثمة آخرون ، يتمنى لو أموت . إن كثيرين من الفرنسيين يتطلعون الى إراقة دم ادوارد . وأغلب الظن ان دي غول واحد من هؤلاء . ولكني كنت رئيسة لوحدة في القوات الفرنسية

الحرة . لست أجد منطقاً في ذلك .

ثم وردت عليّ رسالة من الكولونيل فرنييه يسألني فيها متى اعتزم الالتحاق بهم . كل شيء كان حسناً ، ولكنهم يستشعرون الفراغ الذي أحدثته . والكولونيل يعرف جيداً ، كذلك يقول في رسالته ، ان زوجي في حاجة الي، وأن عليّ واجبات كثيرة، ولكنه يرجو أن يسمح لي الجنرال بالذهاب . لقد كان ثمة بعض القيل والقال عن حوادث بيروت، ولكنه وضع لها حداً. إنه يعرف أن الجنرال صديق مخلص لفرنسا ، فهو يتقدّم منه بفروض الاحترام .

وحملت الرسالة الى ادوارد ، وبسطت أمامه مشكلتي .

– « ما الذي يجب أن أعمله يا ادوارد ؟ »

– « عليك أن تتابعي عملك ، طبعاً »

– « تعني أن أرجع كأن شيئاً لم يحدث ؟ »

– « على التأكيد »

– « ولكن الفرنسيين جدّ معادين لنا ، هنا . . »

– « كنت دائماً تقولين إن الجنود المحاربين يختلفون كل الاختلاف عن هذه الجماعة »

– « وانهم كذلك »

– « وإذاً فماذا تنتظرين ؟ » قال هذا وأظهر الانزعاج ، إنه يكره التردد .

– « ولكن دي غول ؟ كيف أستطيع أن اتابع العمل لدى غول ؟ »

— « انتِ لا تقومين بذلك من أجله . إن مستشفاك لم يكن منحة شخصية لدي غول . انه يمثل مساهمتك في الجهد الحربي . والحرب لا تزال قائمة على قدم وساق » .

— « ولكني انما افكر فيك انت » . وأحسب انني بدوت ، كما شعرت ، مترددة الى درجة تدعو للرثاء ، فقد اخذه الغضب ، وطفق يتكلم في توكيد :

— « ان رأي دي غول فيّ ، ورأيي في دي غول لا علاقة لهما مطلقاً بالمستشفى . انت لا تستطيعين أن تتخليْ عن هؤلاء الفتيات ، ولا أن تتخلي عن الكولونيل فرنييه »

— « في ميسورهم أن ينهضوا بعبء العمل من دوني »

— « ذلك ممكن . ولكن اذا قطعت صلتك « بالوحدة » بسبب مما حدث هنا فمعنى ذلك أنك تأخذينهم بجريرة غيرهم . يجب ان لا تغيب هذه الواقعة عن ذهنك » .

وقطّب وزوى ما بين عينيه ، وبدا وقد استغرق فجأة في تفكير عميق . ولكنه عندما رفع رأسه تكلم في رفق وهدوء وكأنما هو يزدري كل هذه التعقيدات قائلاً : « أظن أن من غير اللائق أن تتخلي عن الفرقة الفرنسية الحرة ، في هذا الوقت بالذات . لقد كنت أنا ذا أثر في تكوينها ، على كل حال » .

ونزلت عند مشيئته ، والتحقت بالفرنسيين الاحرار ، فاذا بي أجدهم في تونس .

٧. الاسابيع الاخيرة

●

تتمثل في مخيلتي أشهرنا الاخيرة في الشرق الاوسط أشبه ما تكون برقعة واسعة من الارض غارقة في ضباب يجري الهوينـــا متحاملاً على نفسه . كانت مصبوغة بلون الكآبة ، ولكن بين الفينة والفينة كان ينقشع الضباب فيشرق من وراء المشهد الكئيب مشهد من الجمال البديع . كنا نجتازها وكأننا نجتاز من جديد الطريق التي عرفناها جيداً بين بيروت ودمشق ، فنرقى في الضباب كما رقينا غير مرة مرتفعات لبنان ، لنستدير بعد هابطين في اتجاه « البقاع » العريض الرائع ، وامسك أنا أنفاسي كما كنت أفعل وأتعلق بذراع ادوارد هامسة « انظر » . ذلك أن الضباب قد انجاب ، وبـدا من تحتنا الوادي البهيج ، العظيم ، مثابةً للاحلام ، والطمأنينة المطلقة ، والجمال الذي لا جمال بعده . ان الارض الزمردية الخضراء ، بعيداً هناك ، لتجري ناعمة صامتة خلال الزمان والمـــكان . وان أشجار الحور لترتفع متطلعة الى السماء فوق البيوت القروية الصغيرة ، والى جانبنا على الاكمة ، يسير أبداً راع يحدو قطعانه ، وحول المنعطف تستبين قافلة من الجمال تشق طريقها وئيداً وئيداً ، وقد انطوت الجبال ، وراء الموكب المتمايل ، بعضها على بعض حتى جبل حرمون .

ثم نغرق من جديد في مضيق سلسلة لبنان الشرقية القاتم . ان الصخور هنا لكالحة ، وان اشكالها لمشوّهة ، وان الآكام القائمة وراءها لترتدي ثوباً قرمزياً عند الشفق . ولكن العتمة آخذة في الاشتداد ، ولسوف يسود الظلام ، وشيكا ،واني لسعيدة بان ينقشع الضباب ، فانا احب هذه البلاد ، واخاف عليها .

والذاكرة ملكة غريبة شاذة . فلست أدري لماذا تختار ذاكرتي ، اذ استغرق في الماضي ، شيئاً دون آخر . يبدو لي أنه ليس وراء اختيارها عقل او منطق . إنها تنطلق بين الاطياف كمن به مَسّ ، وليس من شك في ان اللحظات التي اتذكرها ، باكثر حيوية مما أتذكر غيرها ، من هذه الايام الاخيرة في المشرق، ليست هي ما يدعوه العاقلون من الناس الأبعد شأناً، والأعظم أهمية .

كان ثمة نهار قضيناه عالياً في الجبال – إن شيئاً ذا أثر لم يحدث فيه ،ولكنه يشعّ وكأنه مكنونٌ في وعاء بلوريٍ مضاء ... كان ثمة امسية مقمرة فوق سطحنا في دمشق ، وان لأسمع سعدالله الجابري يتحدث ، في أناة ورفق ، وفي ضحكات صغيرة مكبوتة ، حديث حياته في المنفى . وكان ثمة عربة « ترولي » صغيرة تنطلق مُجلجلة في شرقي الاردن عِبرَ الاراضي التي طافها الكولونيل لورانس مع اصدقائه العرب، وهيكلٌ قرمزيّ اللون يشتعل تحت اشعة الشمس عند نهاية مضيق يقود الى مدينة سَلع (البتراء) الغريبة ، الضائعة من اقدم الزمان ... تلك كانت اكثر حيوية في ذاكرتي من جمهرة السَفلة ، الاوغاد ، القذرين ، السكارى الذين اقبلوا في السيارات الكبيرة ، هاتفين بحياة دي غول ، ليحتفلوا مع الجنرال

obeikandi.com

بينيه ، في مقرّه الصيفي ، لتحرير باريس ...

كان ذلك اليوم العظيم هزيلاً في لبنان . فالواقع ان أنباء فرنسا التي كانت جديرة بان تدوّي في الجبال دويّ نَفَخات الصُور ، لم يكن لها الا صدى رقيق حادّ كأنه الصراخ . كان راديو المشرق هو الذي يصرخ : « لقد طرد المواطنون الباريسيون الالمان . كونيج يتولى امور العاصمة . « ولو كلارك » وفرقته المصفحة يدخلونها فاتحين » . كان الصوت مرتعداً ، صارخاً في هياج . يا له من صوت مسكين مخبّل ! لقد وَقع على آذانٍ تنتظر إشارة الى الحلفاء ، ولكن دون جدوى ، بعد أن ضنّ هذا الصوت على الحلفاء بكلمة واحدة . مساكين اولئك الأسرى المعذبون في الارض المستذلون في المعتقلات ، كان ذلك يومهم ، وفرصتهم الكبرى ، ولكنهم اضاعوا اليوم والفرصة . لقد كانت مدينة بيروت وارض لبنان كلها جديرتين بان تشاركا من صميم القلب في فرحة باريس لو أنها اذيعت بطريقة تختلف عن تلك التي اذيعت بها ، بعض الاختلاف . وانقسمت بيروت الى معسكرات ، وقال بعضهم : « ان المرء لا يستطيع أن يلومهم . ان هذا الحدث يعني شيئاً كثيراً بالنسبة اليهم » . ولكن آخرين تساءلوا : « ألم يكن ثمة قوات بريطانية في نورمانديا ؟ ألم يكن ثمة اميركيون يزحفون على باريس ؟ » ... واختصم الناس بدلا من أن يبتهجوا ، واغلق كثيرون ابوابهم ، ولزموا بيوتهم بدلاً من أن يقصدوا الى حضور الاستقبال الرسمي الفرنسي .

احتفال محزن حقاً .. ! إن شيئاً لم يكن ابلغ منه في الدلالة على

حقيقة الشعور في البلاد. كان على الجنرال بينيه ان يستأجر الرجال ليحشدهم خارج باب قصره وليصرخوا: « دي غول ! دي غول ! » ، يوم الخامس والعشرين من آب (اغسطس) . كان عليه أن ينقلهم عبر الطريق الجبلية الى مقره الصيفي في عاليه ، حتى اذا بلغوا المقرّ اندفعوا من الباب الخارجي ، فغزوا البيت وسرقوا الملاعق، بل سرقوا المصابيح الكهربائية المنصوبة في الحديقة، وهكذا لم يكن في الامكان تزيين المقر الفرنسي بالانوار على ما كانت تقضي به الخطة المرسومة .

وقصدت الى عاليه لأمثل زوجي، ولأن « وحدتي » كانت في ذلك الحين تتقدم من ساحل فرنسا الجنوبي ، نحو ليون شمالاً . كنت اودّ ان اهزّ يد الجنرال بينيه واقول : « واخيراً اظهر ونستون تشرشل أنه يعتزم الوفاء بالوعد الذي قطعه على نفسه في حزيران ، منذ خمس سنوات » . ولكن عندما سمعت الهتافات السكرى ، وعندما وجدت الجموع العابقة انفاسها بريح الخمر تسدّ عليّ منافذ السلّم (فلم يكن في استطاعتي أن اصل الى مدام بينيه لولا شرطي ادوارد العسكري ، الذي شقّ لي الطريق بالقوة) طافت اطياف من الخجل على وجنتيّ وتحمّرتُ على مدام بينيه الى درجة لم استطع معها إلا ان اهمس ببضع كلمات ثم ارجع من حيث اتيت . وهكذا فان تلك الحملة الصيفية المجيدة التي حرّرت معظم فرنسا قد انتهت الى ان تكون الآن في ذاكرتي مشوّشة ملوّثة . كنت أتابعها من لبنان ، خطوة خطوة . وعلى الرغم من انني جزتُ ارض فرنسا منذ ذلك الحين اثنتي عشرة مرة ، ورأيتُ

المراكز الحربية الالمانية وراء جسر «كيل» المتهدّم قرب ستراسبورج من بُرج للمراقبة عالٍ ، وطفت بالقرى التي انتُزعت احشاؤها بشكل مخيف على ضفاف الراين ، وقد تناثرت امعاؤها ممتزجة بالطين ، واختلطت البقرات والافراس الميتة بسرر الاطفال ولعبهم المحطمة ، وصور السيد المسيح ، على الرغم من هذا كله فاني لا استطيع ان افكّر في تحرير باريس دون ان اذكر ذلك اليوم الفظيع في عاليه ...

✲

وكنتُ قد سلخت ، وحيدة ، في عاليه بضعة اسابيع عُنيَ بي خلالها هاميش ما كنزي . ذلك ان ادوارد قصد الى انكلترا في اواخر تموز (يوليو) ، بُعيد عودتي من ايطاليا ، تاركاً إياي وحدي . ولم ادرك الغرض من سفره على التحقيق أول الامر ، ولكني لم ألبث ان اكتشفت الحقيقة . فلم تكد تمضي على ذهابه ايام حتى قلقت الحكومة وقلق اصدقاؤها ، وطفقت الاشاعات تروّج انه لن يعود الى البلاد ، بعد اليوم . كانت الاشاعات مزعجة ، وكان القلق في الدوائر الرسمية اللبنانية مؤثراً ، ومشوّشاً في آن معاً . واذا كان الرئيس ووزراؤه قد أخذهم الهمّ منذ اللحظة التي غادرهم فيها صديقهم الوزير البريطاني الى انكلترا ، فليس من شك في ان هذه كانت أمارة خوف من المستقبل - فأي أمل لهم في ان يربحوا معركة طويلة بسبيل الاستقلال الحق اذا كانوا قد اعتمدوا الى هذا الحد على مساعدة هذا الرجل الفرد ؟ لقد تكشفوا عن شجاعة بالغة في الستة الاشهر الماضية فتمّ لهم بذلك إحراز بعض حقوقهم في السيادة ...

صار بإمكانهم ان يَسِمُوا جوازات سفرهم الخاصة ، وان يجمعوا رسومهم الجمركية الخاصة . لقد وافق الفرنسيون ، على كره منهم شديد ، على التنازل عن هذه المصالح . ولكنهم (اللبنانيين) كانوا لا يزالون يطلبون تسلم الجيش فلا يجابون الى طلبهم . فجيوش المشرق كانت لا تزال خاضعة للقيادة الفرنسية وللضباط الفرنسيين، وانما كان الفرنسيون يستعملونها وسيلة للمساومة على مسألة المعاهدة. ومن هنا اعلن السراي الكبير ان دولتي المشرق لن تتسلما جيوشهما الخاصة إلا بعد ان توقعا معاهدة مع فرنسا، لا قبل ذلك . وكانت النساء في حال عصبية عنيفة . فهنّ يتحدثن عن مؤامرات تُدبّر ، ومكائد تُبيّت بليل . وهل يتورّع الفرنسيون عن شيء! انهم يحرّضون السكان . وأيّ السكان يحرضون؟ العلويين المقيمين حول اللاذقية. فهناك كان للجنرال مونكلار صنيعة منهم * — وهو مزيج من قاطع طريق ، وفلاح ، ومتاجر بالحشيش ، ولص ، ومجرم ايضاً — يدّعي الالوهية ، ويعلن العصيان والثورة. وضحكتُ لهذه الانباء تحملها الينا صديقاتي من نساء الطبقة الارستوقراطية ولكنهنّ قلن انها ليست مما يضحك . ولم أفهم . كل ما فهمته انهنّ كنّ على غاية من النرفزة والخوف .

لقد سبق لهنّ ان انشأن بعد أحداث تشرين الثاني ١٩٤٣ ، جامعة نسائية تنتظم المسلمات والدرزيات والمسيحيات . واذكر اني حضرت بعض اجتماعاتهن . كانت السيدة شارل مالك تترجم لي خطبهن العربية فكنت اعجب بعزمهن وتفكيرهن . ولكن ها هي ذي

*سليمان المرشد الذي اعدمته الحكومة السورية منذ عهد غير بعيد. (المعرب)

مخاوفهن القديمة ونزعاتهن الطائفية الذميمة تعاودهن ...

وكان ذلك يثيرني . فأقصد الى الاجتماع بزلفا شمعون ، أو آنا ثابت ، او والدة رينه تقلا ، السيدة قشوع ، فقد كانت امرأة ذات قلب كبير . وهناك كنت اشكو الى هاته النساء الواعيات ، العاقلات ، ما لمسته من بعض نساء الطبقة الارستوقراطية من جزع في غير محله ، وما سمعتهن يروينه من حكايات لا تصدّق قائلةً إن في مجرّد وجود رئيس الوزراء مسيحي في بلد اسلامي ما يكفي لتبديد هذه المخاوف . فيهدئن من روعي ويقلن بما عرفته فيهن من غيرة ووطنية : « هذا هراء وافتراء . نحن نعرف ذلك كما تعرفينه ونعرف مصدر هذه الحكايات . لقد كانت سياستهم دائماً تمزيق البلاد بالنعنعات الطائفية . انهم ليفعلون ذلك الآن . ولن ينقطعوا عن ذلك ابداً . ان المعلمين في المدارس الفرنسية يلقنون الاطفال انه اذا غادر الفرنسيون البلاد فعندئذ يفتك المسلمون بنا جميعاً ...

- « هل انتنّ واثقات من ذلك ؟ أنا لا استطيع ان اصدّق ان الفرنسيين ينطقون بمثل هذا الكلام القذر الاثيم . »

— « انت لا تعرفين . انها خطتهم ومنهاجهم . فهم يسعون ابداً إلى احداث التفرقة في صفوفنا ، والقاء الرعب في نفوسنا ، ليقولوا عندئذ إن من واجبهم ان يظلوا في البلاد لحمايتنا ... »

وأعود الى منزلي متعبة ، فأدير ابرة الراديو واستمع الى الانباء من فرنسا . ولكن جميع الاشاعات التي روّجها الفرنسيون لا تلبث ان تضج في ذهني ، فتزعجني . لقد كان البريطانيون يعملون لاستخلاص بلدي المشرق لانفسهم ، وكان سبيرز هو المحرّك الاول

في المؤامرة البريطانية .إن عملاءه السريين ليعملون بسبيل هـذه الغاية في طول البلاد وعرضهـا . فاذا ما استطاعوا التخلص من سبيرز فعندئذ يصبح كل شيء حسناً ...ولقد لاح لي أني اسمع كل هذه الاشاعات الشريرة صاعدة من بيروت لتحدث في مسمعي طنيناً كطنين مجتمع النحل .

٢

لله درّ هاميش ، فكم قد حمل إلى نفسي الراحة ، بحديثه اللذّ ، وبعد نظره ، واخلاصه لرئيسه الغائب .

كان يهبط باكراً كل صباح الى المكتب ، وكنت اتبعه ،فقد كان ثمة عملٌ كثير .وكنا احياناً نجتمع على الغداء .وكنت احياناً أخرى اتناول طعام الغـداء مع ووردسورث وقرينته ، او مع بيارد وماري دودج . إن ووردسورث وقرينته لصديقان طيبان، ولقد كانا عوناً عظيماً لي خلال هذه الاسابيع التي كانت فيهـا ألسنة بيروت تتحدث ، في غير ما كلل ولا تعب ، حديث زوجي الغائب، وكنت كلما طما سيل القيل والقال ، وكلما استشعرتُ ان النبال تنطلق غليظة سريعة من بعض الاوساط ، التمس عندهما الراحة ، او اطلبها عند بيارد وماري دودج ، حيث كنت استرخي في منزلهما الهادىء الصافي . فقد كان منزلهما يشع السلام والاحسان الى جميع الناس . وكان آمناً .

وتحدثت الى بيارد دودج غـير مرة عن مستقبل مستوصفات سبيرز . ولقد اتفقنا على ان الحرب قد آذنت بالانتهاء ، وان علينا

ان نقيم هذه المستوصفات على قواعد جديدة تصلح معها للخدمة في ايام السلام .

كان كل انسان يتحدث عن الحرب ونهايتها ، وكان كل انسان على غاية من القلق . وكان مجلس الانعاش التابع للجيش التاسع كثير العناية بمثل هذا الحديث . وقال الجيش إن علينا أن نبذل من النشاط قدراً اكبر، لا قدراً اقلّ ، كلما قاربت الحرب نهايتها. ذلك ان اصعب المراحل التي ستجتازها الجيوش هي مرحلة ما بعد الحرب . فلا بدّ لهذه الجيوش من ان تُنقل الى مواطنها ، وإن ذلك ليقتضي زمناً طويلًا يتراوح بين السنتين والثلاث سنوات .

وإذا كانت حياتنا – حياتي وحياة هاميش – قد بدت هزيلة بالنسبة الى الاحداث العظام التي كانت تجري في اوروبا ، فليس من شك في انها كانت على الاقل منهمكة ، وملأى بالنشاط الاجتماعي. كنا نتناول طعام الغداء خارج البيت في اكثر الاحوال فان لم نفعل تناولنا طعام الغداء مع نفر من الاصدقاء على السطيحة . ولم اكن لاحتاج ان اقول لنفسي إن لهذا كله قيمته الذاتية الخاصة . فقد كنت أعرف له هذه القيمة ، وخاصة بين اللبنانيين . ذلك أنهم كانوا في كل مكان يسألونني : « هل سيرجع من جديد ؟ هل انت واثقة من انه سيرجع من جديد » او « نحن نسمع ان دي غول سوف يأتي،وأنه سيرسل الى هذه البلاد فرقتين فرنسيتين جديدتين. هل تعرفين ؟ هل سمعت شيئاً من مثل ذلك ؟ يقولون ان الفرنسيين سيفرضون الانتداب علينا من جديد ، وان حكومتك قد وافقت، وان الجنرال قد استقال ، وأنه راجع لمجرد العودة بك الى الوطن»

وكنت اطمئنهم واحمل الى نفوسهم الثقة ، ابداً . اجل إنه سيعود . وإني لواثقة من ذلك وثوقاً تاماً . قد لا يمكث هنا فترة طويلة . لقد سبق لي ان انبأتهم بأن عليه أن يرجع الى الوطن . ولكن موعد ذلك لم يحن بعد .لا ، إن بعثة سبيرز لن تقفل ابوابها. وديغول لن يعود على التحقيق ،ولن يبعث بجنود آخرين . وكيف يستطيع ذلك ؟ كانت فرقه في فرنسا . اما فيما يتعلق بالحكومة البريطانية فيتعين عليهم ان لا يركنوا للاشاعات . لقد اعطت حكومتنا كلمتها ، وليس ثمة محل لأعادة النظر في مسألة الانتداب الفرنسي . تلك مسألة قد انتهت.أليس لهم ثقة في بريطانيا العظمى؟ ايعتقدون أننا لن نصدق وعدنا ، واننا نساوم الفرنسيين عليهم ، ثم نبيعهم لهم ... لقد بذلت جهدي لوضع النقاط على الحروف، ومع ذلك فالاشاعات ما تزال تملأ الجو ، وكلما تقدمت بنا الايام والاسابيع اتخذت شكلا جنونياً صاعداً .

ولم ابحث عن مصدرها . كنت اعرف ،وكنت لا احب ان أعرف . كانت علاقاتنا مع الفرنسيين في بيروت حسنة او تكاد منذ وصول بينيه وقرينته. لقد وجدت السيدة بينيه فاتنة حقاً، ووجدت الجنرال مقبولاً رغم ما فيه من جفوة . ولقد تناولنا طعام الغداء معهما قبل ان يغادرنا ادوارد ، وتناولا بدورهما طعام الغداء معنا. كذلك دعينا الى مأدبة اقامها لنا الكونت اوستروروغ ، وأخرى في امارة البحر (الاميرالية) الفرنسية بضيافة الكومندان فاتو Fatou وقرينته . والواقع أن مدام فاتو سألتني غاضبة ، عندما جاءت انباء القتال من نورمانديا، لماذا غزت الجيوش الاميركية

والبريطانية فرنسا ؟ ألم يكن في استطاعتهم أن ينزلوا على الارض البلجيكية بدلا من أن ينزلوا في فرنسا ؟ ولكنها كانت امرأة عصبية ، فلم احاول أن اجيب عن سؤالها . لقد تظاهرت بانني لم أسمعه . وفي الحق أني تظاهرت بالصمم الكامل طوال ذلك الصيف، على الرغم من أن سمعي لم يكن في يوم أشد حدة،حتى الألم،مما كان في تلك الأيام .

ومع ذلك ، فقد نسيت الان ، أو أكاد ، لماذا كنت غير سعيدة ، وما هي الآلام والسهام التي وجهت الى صدري، ومن الذي وجهها . ان في استطاعة المرء ان ينسى الاشياء الاجدر بالنسيان .

*

كان ثمة شجرة ، فيما اذكر ، شجرة يوكاليبتوس هائلة ، تقف هادئة مبهمة تحت شمس الاصيل . أي شأن لتلك الشجرة في سير الاحداث او مصير الشعوب ؟ لقد نهضت جبارة ساكنة ، فوق النهر، وقد ارتفعت يداها العريضتان الناعمتان الى أعلى ،في حين اغتسلت أوراقها الطويلة الهيفاء باشعة الشمس ، فتدلّت تحلم أحلامها .. إنها عملاق رفيق متلفع في حُلم !

وكانت ثمة أشجار اخرى لاحت وكأنها تتحدّث عن عالم يختلف كل الاختلاف عن دنيا الناس . فههنا اشجار زيتون ، في عُمر الدهر ، بجذوعها القصيرة ، الملتوية ، الكثيرة العقد . وهنالك نخلات منعزلات الى جانب البحر ، وغياضٌ من الحوْر ذوات الاوراق السعيدة المرتجفة . إن نواعير حماه لتصرّ الآن وتَصْرُف*

* صرفت بكرة البئر : صوتت عند الاستقاء .

في ذاكرتي ، وإن المدينة العجيبة المتكبرة الغامضة لتضجّ بألحان دورانها المتْعَب المكدود . وهناك بعيداً إلى الشمال تقوم مدينة خيالية وسط سهل مقفر خالٍ ، وطفل صغير يسوق قطيعاً من المعيز فوق الحجارة... حيث ابتنى سمعان العمودي لنفسه عموداً وانشأ كنيسة . ولكن في شوارع دمشق حركة ناشطة من البيع والشراء ، فهناك لَغَطُ ألسنة لاتفتأ تدور ، وصلصلة نقود تُدفع وتُقبض ، والوان من كنوز الشارع تُحمّل على ظهور الجمال المتعجرفة التي تُقلها في غير ما مبالاة عبر الصحراء .

وتضجّ في ذاكرتي بعد ذلك عَرَبة « ترولي » trolley تجوز الصحراء في شرق الاردن . ان السيدة بشارة الخوري لتضحك ، وقد جلست غير بعيد مني ومن ادوارد ، ومعها ابنها «ميمو» وابنتها « هوجيت » ، وجون ستوكس مرافقنا العسكري الخاص . اننا نحن نضحك فيما تنطلق بنا هذه العربة المجلجلة ، المطقطقة بسرعة بالغة في كبد الصحراء . ولكني اخبط في الازمان والفصول . فقد كان الربيع في شبابه الاول عندما اصطحبنا قرينة الرئيس وولديها إلى البتراء ، وكان الجو بارداً جداً في العربة المكشوفة وليس عليها إلا حجابٌ من القماش الغليظ يقينا غائلة الريح . إننا جميعاً متدثرون بجلود الغنم ، و « ميمو » النحيل يكاد يضيع بين امه الممتلئة ، واخته الصغيرة البدينة جداً . إن الكابتن ميمو ، كما كان ادوارد يدعوه تودّداً وتحبباً ، لايعرف الضحك ، فالحياة عند هذا الفتى الحساس ، البالغ من العمر السادسة عشرة ، جدّ كلها . إنه يرنو عبر شرقي الاردن بعينين مستديرتين مدهوشتين . ليس ثمة

إنسان فتراه ، يا ميمو ، في اي مكان من هذه الارض ، حتى اقصى امتداد البصر ، وأبعـــد مطارحه . تلك ارض صامتة ، خالية ، سعيدة . كذلك قال مرافقنا الجندي العربي ، كما تذكر .

لقد اخبرك ان شرقي الاردن بلاد سعيدة لأن اهلها يحكمون انفسهم بانفسهم فليس بينهم اجانب يتدخلون في شؤونهم . وعندما قلتَ : « ولكن هناك مستر كير كبرايد والجنرال كلوب الذي يقود جيشكم » اجابك : « كلوب باشا ليس اجنبياً ... انه واحد منا » واحسب انك اخذت تقارن بعقلك الناشيء المفكر بين بلاده وبلادك .

ولكن انظُر ! إن ثمة جماعة من الجمال ، وان واحداً منهـــا ليسد الطريق . لقد أمسى على الخطّ رافعاً شفته متغطرساً متباهياً .. إنا لنوشك ان نصرعه ، فحذار ثم حذار ! وتتحدث امك باللغة العربية ، في هدوء وأناة ، إلى سائقنا المتعَب المكدود الذي يبتسم ويقبض على مقود العجلة ، واضعاً حداً لسرعتها الجنونية ، ومتقدّماً باكثر ما تطيقه عربة « ترولي » من الروية والرفق ، لنقنع نحن الحيوان البليد بان يعدل عن الخط ، ويدعنا نتابع الطريق .

كنا نقف عندما نحس الجوع . فالخط كله لنا . ليس ثمة عربة « ترولي » اخرى ، ولن ينطلق على هـــذا الخط قطار اليوم ، او غداً . وهكذا كان في استطاعتنا ان نقف عندما نريد ، وحيثما نريد ، فنحمل السلال التي تضم طعامنا ونجلس على الارض قرب الترام ، ونأكل . اقول عندما نجوع ، ولكنا لو استشرنا هوجيت في هـذه النقطة إذاً لما اجتزنا من هـــذا السهل الفسيح الا اقله ... ولذلك

تركنا للسيدة الخوري ان تقرر متى نقف . ولقد كان من العسير اختيار مكان دون آخر ، فكل مكان هو صنو اخيه وصورة عنه . وليس ثمة وقاء لنا ، في طول هـذه الارض وعرضها ، من الريح والشمس. فالحق ان الارض كانت عبارة عن رمال وصخور سمراء داكنة، ولكن هوجيت ما عادت تطيق الصبر اكثر مما فعلت.. وهكذا كان علينا ان نقف .

لقد سبق لنا ان دعونا السيدة الخوري منذ فترة بعيدة الى نزهة في البتراء، ولقد استطعنا اخيراً الايفاء بوعدنا بعد ان وجد ادوارد متسعاً من وقته . وانطلقنا الى عمان ، حيث قضينا الليل مع مستر كير كبرايد في المقر البريطاني ، ولكن كلوب باشا هو الذي تولى خدمتنا، اذ كان مستر كير كبرايد غائباً في انكلترا ، وكان كلوب باشا هو الذي اعد العدة للرحلة. ان البتراء — قارة الارض المفقودة Atlantis ، المطمورة تحت الارض ضائعةً منسية — هي على التحقيق من اعجب المواطن في الدنيا ، اذ تنحدر وتنحدر لتجدها في بطن وادٍ خفي وراء باب من الصخر الاسود يبلغ ارتفاعه الف قدم ولا يتجاوز عرضه عرض باب من ابواب غرف النوم . ولكني لا اكاد اذكر منها الآن الا لون الجدران الصخرية الاحمر العنيف في داخلها، والهيا كل المتباهية القليلة الغور المنحوتة في الصخور ، والا هـذه القبور الخاوية البشعة، الكريهة، وقد انتظمت طبقات بعضها فوق بعض، لتذكر المتأمل فيها بفراغ الموت وأباطيل الانسان الحقيرة !

٣

رجع ادوارد في اوائل ايلول (سبتمبر) . وها انا اذكر بعد

هذا كله امسية قضيناها في الزبداني . كان ذلك في رمضان ، وكنا نتناول طعام الافطار مع رئيس سوريا في جنينته .

والزبداني مصيف في سلسلة لبنـــان الشرقية يرتاده اهـل دمشق كثيراً . فاذا كنت قادماً من بيروت فان عليك لكي تبلغ الزبداني ان تعدل الى يسار الطريق الرئيسية ، قبل ان تنحدر الى بردى ، تماماً ، لتعود فتجد النهر مرة ثانية في مرتفع من الارض . والبلدة الصغيرة — الزبداني — رطبة خضراء ذات دارات (فيللا) منشأة وسط الجنائن على الهضبة فوق النهر . وكان للرئيس دارتان ، تقوم كلتاهما في الحديقة نفسها ، الاولى لزوجـه وابنيه والثانية لتصريف مهامه الرسمية . وتناولنا طعام العشاء باكراً ، لانه كان اول وجبة يتناولها القوتلي ذلك النهار ، بحكم الصيام في رمضان . وبعد قليل وفد علينا فارس الخوري ، رئيس مجلس الوزراء المسيحي المهيب ، الموقر ، وسعد الله الجابري رئيس المجلس النيابي ، وجميل مردم بك لانه كان عنـد الرئيس ووزرائه اشياء خطيرة يرغبون في بحثها مع الوزير البريطاني. وعندما وصلوا انسحبت السيدة القوتلي وانسحبت انا ، والابنان جميعاً ، ولكنها جلست على رأس طاولتها اثناء العشاء (الافطار) ، وادوارد الى جانبها ، فقد كان صديقاً لشعبها ، وكان زوجها يثق به . إنها لم تستقبل من قبل ، فيما اعتقـــد ، احداً من رجال السلك السياسي الاجنبي ، وهي نادراً ما ترى زملاء زوجها ، ولكنها كانت رغبة القوتلي في ان يجامل صديقه البريطاني .

والسيدة القوتلي امرأة جليلة جداً ، طويلة القامة ممتلئة كزوجها ، ذات عينين رماديتين صافيتين . إنها لا تتكلم الفرنسية ولا الانكليزية .

ولكنها وقد جلست الى الطاولة في الحديقة الظليلة – وعلى رأسها حجاب ازرق ناعم يتدلى متثنياً على كتفيها العريضتين – بدت جميلة جداً ، وهي تراقبنا فيما كنا نتكلم . حتى اذا ترجم شكري لهـــا حديثنـــا ضحكت كما تضحك النساء السعيدات اللواتي يُكْبِرن ازواجهن ويعجبن بهم .

لقـــد انسحبنا ، هي وانا ، الى الدارة المجاورة عندما أعلن نبأ وصول الوزراء . وحُملت الينا القهوة فشربناهـا على الشرفة ، وآوى الفتى الصغير في فراشه ، بينما بقيت الفتاة الصغيرة معنالتقوم بدور المترجم ، فقد كانت تدرس الفرنسية في مدرستها .

وطالت جلستنا في تلك الليلة الناعمة من ليالي ايلول ، وقصّت السيدة قوتلي عليّ ، من طريق شفتَي ابنتها ، قصة زواجهـــا في المنفى ، والمنزل الكبير ذي الغرف المتعددة حيث نشأت وترعرعت . وبين الفينة والفينة كان يبرز من بين الظلال خـــادم يحمل عصير البرتقال المثلج في كاسات طوال ، فنجلس في صمت ، نستمع الى الريح تناجي الاشجار .

وتساءلت فيما بيني وبين نفسي ، وانا مع السيدة القوتلي ، عما كان يجري في الدارة الثانيـة . ان معظم الحديث بـين زوجي وبين هؤلاء الزعماء العرب لا شك يدور ، كما قد دار دائماً في السنة الماضية ، على موضوع المعاهدة ، مع الفرنسيين . كيف سيتلقون الرسالة التي يحملها من لنـدن ؟ الا يزالون يثقون به ؟ الا يزالون يعتبرونه صديقاً ؟

كثيراً ما قيل – كذلك فكرت – انه ما من بريطاني يمكن

obeikandi.com

ان يتخذ من عربي صديقاً . ولكن ذلك غير صحيح . لقد اقام لورانس الدليل على أن ذلك كذبٌ خالص في ١٩١٤-١٨ . كان كير كبرايد وكلوب يفعلان الشيء نفسه ، الآن في شرقي الاردن، وكذلك كان كورنواليس في العراق ، هذا عدا عما يقوم به رجال اكثر شباباً كالماجور هارفي والكابتن ديردن اللذين كانا يشقان طريقهما الى قلب حماه ، حماه المغلقة ، اكثر مدن سوريا محافظة وتعصباً . ولقد زرتهما في حماه ، وسألني ديردن ما اذا كان صحيحاً اننا سنرجع ادراجنا الى الوطن. قال : « اذا غادرنا زوجك فمن الخير لنا جميعاً ان نحزم امتعتنا . » وها هو ادوارد قد اقبل الآن يحمل انباء سيئة لشكري بك . هذا شيء اعرفه . ولكني على كل حال واثقة من ان شكري يحبّه ويثق به ، وانه سيظل يحبه ويثق به مهما حدث .

« أكان من الحيوي لبريطانيا العظمى ان تكون هذه البلاد صديقة ودودة ام لا ؟ لقد مرّت بي في تموز (يوليو) سنة ١٩٤٢ لحظات اعتقدت فيها اني لن استطيع بعدُ الاتصال ببيروت ، واني مضطرة الى ان ارتدّ مع فتياتي وممرضاتي جنوباً الى البحر الاحمر ، فأرحل الى ارض الوطن ، من طريق الهند أو اوستراليا . افرض ان العرب قد ثاروا علينا ، في ذلك الوقت ، وان الشرق الاوسط كله قد اصبح طعمة للنار . ان صداقتهم لم تكن امراً متوقعاً ولا نتيجة مقدرة في سنة ١٩٣٩ . فلقد اعلن الزعماء السوريون على رؤوس الاشهاد انهم فقدوا ثقتهم بنا بعد الحرب الماضية، وكثيراً ما تحدثوا عن التغير الذي طرأ على موقفهم من بريطانيا العظمى منذ ان عيّن

obeikandi.com

ادوارد وزيراً في بلادهم . والواقع ان سعد الله الجابري تحدث في صراحة بالغة ، تلك الليلة من ليالي الصيف ، عندما تناول هو وجميل مردم طعام العشاء معنا ، وعندما جلسنا بعد الطعام على سطح بيتنا ، في ضوء القمر ، نتطلع عبر سطوح المدينة الفضية ومآذنها . تكلما كيف سقط اعتبار بريطانيا في الشرق الاوسط منذ ان زحف اللنبي الى دمشق سنة ١٩١٨ ليطرد منها الاتراك . لقد عقبت ذلك الحدث يقظة عربية بقيادة فيصل ، وحنثنا نحن – البريطانيين – بوعودنا لفيصل اكراماً للفرنسيين الذين منحهم الحلفاء انتداباً على البلاد التي كان يعتقد هو ، اي فيصل ، انها جزء من مملكته . ولقد كان عرب سوريا كلهم صفاً واحداً في استنكار هذا الوضع ، وعدم اعترافهم بالانتداب الفرنسي ، منذ الساعة الاولى .

وصرّح لنا سعدالله الجابري وجميل مردم ان الفرنسيين قد مارسوا امتيازاتهم وكأنّ الانتداب لا ينطوي على مسؤولية نحو الشعب ، والاخذ بيده في معارج الحكم الذاتي ، ناظرين اليه كفرصة للربح والاستثمار . لقد انشأوا بعض المدارس ، هذا صحيح ، لتعليم اللغة الفرنسية والتاريخ الفرنسي ، وشجعوا الطوائف المسيحية العديدة في لبنان . ولكنهم خلقوا احتكارات ضخمة لابناء جلدتهم ، واستولوا على موارد الدولتين السورية واللبنانية ، واختاروا نفراً من المسلمين اشتهروا بانهم مهربو حشيش ولصوص ومجرمون ليكونوا اصدقاءهم وصنائعهم في البلاد . ليس هذا فقط . بل لقد سحقوا بالقوة كل محاولة قامت بها الامة لاستخلاص حقوقها المشروعة ، وارسلوا الوطنيين جميعاً الى السجون او

الى المنافي .

وقال الجابري بضحكته الصغيرة المكبوتة : « ولقد كنا في جملتهم . كان الرئيس صديق فيصل ، وها ان الفرنسيين يريدوننا على ان نوقّع معاهدة ، ولكنا لن نوقع معاهدة مع الفرنسيين » .

وفي ساعة متأخرة أقبل علينا الرئيس والوزراء . وحيّا الوزراء السيدة القوتلي في تودّد لطيف . وتحدّثنا قليلا ثم ودّعنا القوم جميعاً . ولقد مشى الرئيس ووزراؤه الثلاثة معنا خلال الجنينة . كانت وجوههم غامضة لا سبيل الى فهمها ، وكذلك كان وجه ادوارد . واذا كنت قد سألته ، فيما كنا نبتعد بسيارتنا ، عما قيل في هذه المناقشة الطويلة ، فاغلب الظن انه لم يجب ، واذا كان قد أجاب ، فقد نسيت كلماته ، كما كان مفروضاً في مثلي . وليس لهذا كبير شأن . ذلك لأن الجواب الحقيقي لم يأتِ إلا بعد ثمانية اشهر عندما فتَحَ الجنرال اوليفا روجيه ، ذلك الرجل السوداوي الميلا نخوليّ ، النار فجأة على مدينة دمشق في مساء يوم من ايام شهر نوار (مايو) .

وبلغت الانباء مسمعي في بوليو Beaulieu . كنت في جنوبي فرنسا مع الفرقة الفرنسية الحرة الاولى ، في ذلك الحين . اما ادوارد فسمع الانباء في لندن . كان تيرنس شون هو وزيرنا المفوض في سوريا ولبنان ، وكان عليه هو أن يرفع تقريراً عن الحادث الى لندن . لقد خلف ادوارد في هذا المنصب ، وكان الفرنسيون هم الذين قدّر عليهم ان يلزموا الثكنات هذه المرة ، ابتغاء انقاذهم من ان يفتك بهم العرب . ولكنا لم نكن نعلم ان شيئاً من مثل

هذا سوف يقع عندما قلنا كلمة الوداع لأصدقائنا في سوريا ولبنان. حتى ادوارد لم يكن بامكانه ان يتنبأ الى ايّ حد كان الفرنسيون خليقين بان يسايروا رغبتهم الجامحة في فَرض المعاهدة على دولتي المشرق .

٤

وقضينا خريف سنة ١٩٤٤ في امن وسلام بدمشق ، حتى ذلك اليوم المخوف الذي تسامعنا فيه ، وتسامع الناس ، بان اللورد موين قد اغتيل . ما كان اجمل تلك الأيام ... ! كنا نقوم بنزهة مع كلابنا كل يوم ، بعد الغداء . كانت السيارة تقلّنا حتى تلك الطريق التي تنتهي الى حمص وحماه ، او تطوف بنا المدينة لتنعطف شرقاً مع النهر خلال الغوطة ، وهي جنائن دمشق الواسعة الفيحاء التي تعدّ اعجوبة الجمال في الربيع ، عندما تزهر اشجار المشمش ، وتفد اسراب البَجْع في طريقها الى اوروبا . وكثيراً ما كنا نترجّل من السيارة عند جدول من الجداول ، فنتمشى عبر السُبُل الخُريفية تحت اشجار الجوز ، او خلال غياض الزيتون . كانت اوراق الجوز سمراء برونزية ولكن أطراف شجرات الحَور الشوامخ كانت ذهبية كأشعة الشمس التي سالت بين جذوع الزيتون الكثيرة العُقد والتجاعيد . ثم تهجم العتمة ، ويزحف الضباب الازرق فيلف الارض كلها ، ويرجع القرويون الى بيوتهم من الحقول . وكان الرجال ، إذ يمرّون بعجلاتهم او حميرهم المثقلة يودّعوننا قائلين « مع السلامة ! » ، أما النساء فكنّ يُحكمن شدّ براقعهنّ ، ويدرعن

مُسرعات . إننا لنرى اليهنّ من بعيد ينطلقن في خفة عبر الحقول وهنّ اشبه بالاشباح في ملاءاتهنّ المخيطة من الاقمشة القطنية ذات الألوان القرنفلية الشاحبة ، أو البنفسجية الزاهية .

وفي ذات يوم دُعي ادوارد ، وكان يتناول طعام الغداء ، الى التلفون ليتلقى خبراً مفاده ان اللورد موين قد صُرع خارج بيته في القاهرة . كان وجهه فاجعاً عندما خرج من مكتبه ، فقد كان واللورد موين يتحدثان معاً قبل نصف ساعة فقط . وكان موين قد اجتمع بأنتوني ايدن ، وكان سعيداً بما سمع اشدّ السعادة . ولقد سأل ادوارد أن لا يجزع ويهتمّ . فكل شيء سيجري على ما يشتهي في المشرق.

وقال ادوارد : « لقد فقدنا في وولتر موين واحداً من رجال الدولة القلائل عندنا ... »

كان وداعهم لنا رائعاً في بيروت ودمشق . والحق انه لم يكن من اليسير علينا ان نفارق هؤلاء القوم وان نقول لهم كلمة الوداع . كان ثمة ولائم متعددة ، وحفلات متعددة ، ذلك ان جميع اصدقائنا وصديقاتنا رغبوا الينا في زيارتهم ، على التعاقب : ليندا سرستق ، واليس تويني ، وآنّا ثابت ، ومود فالا ، وجورج ونورما وردسورث ، وماري وبيارد دودج . والحق أن سهرتنا مع دودج وقرينته ذكرى من آلم الذكريات وأوجعها ، لأننا كنا على غاية من الابتهاج ، تلك الليلة ، ولقد قدّما لنا هدية فاتنة ، هي نسخة أثرية ثمينة من القرآن ، حتى إذا كان الغد سمعنا ان ابنهما الاصغر قد لقي حتفه في ساحة الحرب بفرنسا ، وكانا لم يرياه منذ اربع

سنوات .

ولم تتخلف ماري عن إقامة ليلتها الخيرية في موعدها المقرّر لها بعد يومين . وعندما قصدت لأودّع جميع هؤلاء العاملين المؤمنين الذين كانوا لا يزالون يعدّون الاثواب لمستشفياتنا ، تحدثنا عن الفتى الذي سقط في المعركة ، وتقدم بيارد وماري حتى درجات سلمها الامامية يلوّحان لي مودّعين ، وقد وقفا يبتسمان جنباً الى جنب ، فيما كانت السيارة تنطلق بي الى البيت .

كانت اياماً مزدحمة ، مؤثرة ، مبهجة ، واحياناً مضايقة . لقد سُمّي ادوارد مواطناً فخرياً في كلّ من بيروت ، ودمشق . وفي العاصمة السورية أعدّت الحكومة حفلة استقبال ، وعشاء انتظم ثلاثمئة شخص . واقيمت الحفلة والعشاء في دار البلدية ، وشهدهما رئيس الجمهورية خارقاً جميع قواعد البروتوكول . وجلست الى جانبه واخبرني أنه لم تقم قط من قبل حفلة عشاء ، في دار البلدية ، لأيما اجنبي ، الا مرتين اثنتين : الاولى لفيصل (كذا في الاصل)، والثانية لاللنبي ، وهذه هي الثالثة تقام اليوم للجنرال سبيرز .

ولست اذكر الآن كل شيء . انا اذكر ان ادوارد وجه كلمة الى اعضاء مجلس النواب في بيروت ، وان وداعه للبعثة الحاملة اسمه كان مؤلماً حقاً ، وان منزلنا في صبيحة اليوم الذي غادرنا فيه البلاد أعاد الى مخيلتي ذكرى يوم اعتقال الحكومة ،فقد كان مكتظاً يغص بالناس . والحق ان كثيرين كانوا هم نفس الذين وفدوا علينا في ذلك الصباح من سنة ١٩٤٣ ، ولكنهم اقبلوا الآن ، لا ليطلبوا المساعدة والتأييد ، ولكن لتضطرب السنتهم بكلمة الوداع !

obeikandi.com

وتحركنا في الخامس عشر من كانون الاول. كان الجيش التاسع قد اعدّ حرس شرف من الفرسان في مركز القيادة العليا. واستعرض ادوارد الحرس، ثم انطلقنا لسبيلنا. كان البحر، فيما اذكر، غاضباً جداً، ولكن ازرق شديد الزرقة تحت شمس الشتاء، وكانت النخلات القائمة على الشاطيء تترنح من خفق الرياح وكانت جبال لبنان مكسوة بالثلوج ...

obeikandl.com

٨ . مأساة دمشق

•

كان الالتحاق « بالوحدة » في فرنسا عملًا طائشاً . كان يجب عليّ ان اعرف ذلك . لقد حذّرني منه كثيرون . صحيح انني ما كنت اعرف إلا النزر القليل . بيد اني لو نظرت فيما كنت اعرفه وتدبّرته في رويّة وامعان لكان فيه ، غير شك ، ما لا يشجعني على الذهاب .

كان دي غول في باريس . وهذا وحده كان يجب ان يكون كافياً لتحذيري. كان رأس الحكومة الموقتة التي اعترف بها الحلفاء في تشرين الاول (اكتوبر) . وكنا بلغنا ارض الوطن ، ادوارد وانا ، لقضاء عيد الميلاد ، ولكني لم البث ان تركت انكلترا الى فرنسا ، بعد ثلاثة اسابيع ، في الطريق الى الالزاس والى « الوحدة » .

وصلنا باريس تحت عاصفة ثلجية ، فلم نقض فيها غير ليلة واحدة. ذلك اني لم ارغب في البقاء ، فقد طال بعادي عن « الوحدة » . فلما سألتني « ت. و » أن امكث قليلًا اجبتها نفياً ، قائلة اني اؤثر ان اواصل السير من الغد ، بالرغم من الحالة الجوية وحالة الطرق. فكلتاهما ، كما قالت، كانت سيئة جداً . لقد انقضت

بضعة ايام لم ينقطع (الثلج) خلالها عن السقوط . والواقع اني كنت مبتهجة سعيدة . واذكر اني قلت لنفسي :

« فلتُثلج السماء ! لتلتحف باريس بثوب من الضباب أبيض ! إن العاصفة لتوفّر لي الوقت ، ولكن لأي شيء ؟ لأجمع ما تفرّق من نفسي ، واهدىء ذهني الهائج المضطرب . »

لقد كنت عصبية حقاً . ولكن وجود ديغول لم يكن هو الذي اورثني هذه النرفزة وتلك العصبية . كانت ثمة أشياء عديدة تجعلني ارتعد بالدهشة والتوقّع .. ذكريات يرجع بعضها الى سنة ١٩٣٩ ، ويرجع بعضها الآخر الى زمان أمعن في القـــدم . ذكرت بيت « فوبورج » الذي كان يزخر باللـــون والموسيقى والضحك ، والاصدقاء الذين ارتقوا يوماً درجات هذه السلم . لقد صار بعضهم اشباحاً الآن . أما الآخرون ؟ واذكر اني حدقت في التلفون وكأنما هو قنبلة يدوية . كانت هاهنا امرأة . أكانت وراء حجاب الثلج العاصف في الغرفة التي اعرفها احسن المعرفة ؟ لقد احببتها . كان لها عقل فخور لا يعرف الخوف ، وكانت تحب الحياة حباً عارماً كما أحبها ، وكانت تحترم ميولي واهوائي الخاصـة ، كما كنت احترم ميولها وأهواءَها الخاصة ، وما كانت احدانا لتكذب قط على الأخرى.

لقد ذكرت رقم تلفونها . هل ارفع السماعة ؟ ولو قـد فعلت ، ولو قد اجابت ، فما الذي استطيع ان اقوله ، وكيف السبيل الى ان اسأل عما اتوق الى معرفته ؟ إن في استطاعتي ان اقول ، : « ماي تتكلم . » ثم « كيف حالك ؟ » ولكن لم يكن في مقدوري ان اسأل : « ماذا كنت تفعلين بنفسك طوال هـذا الوقت ؟ » ذلك

لأن السؤال المبتذل قد اتخذ ، فجأة ، معنى هائلًا ذريعاً ، ومع ذلك فيجب ان اعرف ، وإني لأخـــاف ان أعرف . فما الذي يجب أن أصنع ؟ وابتعدت عن التلفون وانقلبت الى الفتيات . إن من الخير لي ان ارجىء هذا الاجتماع المخوف .

— « اين مقرّ « الوحـــدة » اليوم ، على التحقيق ؟ »

— « في قرية تدعى هوهوالد في سفح « الفوج » ، على مسافة عشرين ميلًا من ستراسبورغ »

— « هل نستطيع بلوغها في يوم واحد ؟ »

— « بلى ، ولكن في غير هذه الحـالة الجوية . سوف يكون علينا ان نبيت في نانسي . » ...

٢

وقصدت عدة مرات الى باريس فيما بـين كانون الثاني (يناير) وذلك الاسبوع الاخير غـير السعيد ، من حزيران (يونيو). كان في إمكان المرء ان يستشعر الراحة ، هناك ، في الخدمـة العسكرية — فقد نزلنا في فندق فاندوم الصغير الممتاز حيث طَعِمْنا مما كان يقدمه لنا الجيش البريطاني من أنصبة — ولم يكن ثمة ما يوقع الحزن في نفس المرء إذا ما لزم جماعته التي يعمل معها ، او اصدقاءه القدماء في الغرفة ، اما في خارج دوائر الجيش والسفارة فلم اقع على كثير مما يبهجني ويعيد الثقة الى نفسي . وانا ادرك أن الزملاء من ابنـاء وطني وبناته لم يكونوا جميعاً يستشعرون شعوري نفسه . كان ثمة اولئك الذين لاحوا وكأنهم يعتقدون ان الماضي قد مات، واننـا

يجب ان لا نهتم بما كان يشعر به اصدقاؤنا السابقون نحو الألمان . فأذا ظهر لنا ان سلوكهم لم يكن عنيفاً جداً ، صلباً جداً ، فيجب ان نتجاهل هذه الواقعة وأن نغتفرها . فقد كانت فرنسا مريضة . والحق انني سمعت في كل مكان ، هذه الجملة : «فرنسا مريضة » . (La France est malade). إنها في حاجة الى أن تعالج لتستعيد صحتها السليمة . ولست اختلف مع هؤلاء على مرض فرنسا ، ولكن الذي اذهب اليه هو ان الماضي لايزال حياً، بل هو العنصر الاكثر حياة وحيوية في جهازها الضعيف الموبوء . ليس ثمة شيء يعمل ، ليس ثمة شيء يقوم بمهمته ، فيما بدا لي ، غير الماضي . كانت المصاهر والمصانع باردة ، وكان الضوء الكهربائي منطفئاً . كانت قُطُر السكة الحديدية واقفة ، وكانت الدكاكين خاوية وراء واجهاتها الزاهية ، ولكن الماضي كان حياً يختلج في الاسواق والشوارع، كان يدبّ على درجات السلم صعوداً وهبوطاً، كان يتطلع بمليون عين وعين . . .

كان الماضي يعمل ماكراً ، مرائياً ، مخاتلاً ، رشيقاً ، كما يعمل السرّ المخزي ، او الرّذيلة المتسترة ، أو كما يعمل المكروب في الدم. كان يتأكل قلب الأمة هامساً في أذنها : « لقد اضرّ بك البرد والجوع . كانت حالك ، من قبل ، أفضل بكثير مما هي اليوم . إن صفحة الالمان لم تكن سوداء بقدر ما تتوهم . صحيح انهم سلبوك ثرواتك . ولكنك كنت ابرع مما احتسبوا . لقد تعلمت كيف تكذب وتغش،وكيف تحتال على العدو . إن في استطاعتك ان تقوم بذلك الآن . ايّ ضير في ان تسير سيرتك الاولى ؟

الشعب ؟ ومن هو الشعب ؟ الشعب هو العدوّ ! ان الذي يجب ان يهمك هو اسرتك ونفسك . ليشتغل كل امرىء بنفسه . فقد كفانا كلاماً عن الشعب . ولا بأس في الحرية ، والمساواة ، إذا كنت تُعْنى بالالفاظ ، أما الاخاء فيجب ان لا تفكر فيه ! » .

والمفروض ان دي غول إنما خرج ليصرع الماضي . ولقد كانت وسائله بدائية Primitive ولكنها لم تكن رفيقة . وانى لها ان تكون؟ ذلك ان اساس شخصيته كان العُجْب والكبرياء . وليس من اليسير على المرء أن يتصوّر حنقه المضطرم . فهو يصدر في جميع اعماله عن البغض — بغضه لحلفائـــه الذين كان مديناً لهم بتحرير بلاده ، والذين كانوا يحتلون الارض الفرنسية الكسيرة ، المستذلة ، وبغضه لشعبه الملوّث غير النادم ، وبغضه للماضي الذي يُثقل بلاده ويشد عَقِبَيْها الى الوراء .

كانت السجون ملأى ، فيما يبدو . ولسوف يدعى بيتان وزملاؤه الى المحاكمة في وقت قريب . إن فرنسا ستغدو نظيفة من جديد ، ودي غول هو الذي سينظفها . ومع ذلك فقد لاح الأمر وراء ما يُطيق . إنه وقد شمله العُجب واستحوذ عليه ليس يفكّر إلا في «الاعتبار» الفرنسي prestige والسبيل الى إعادته . وأوضح ان الجيش كان وسيلته الوحيدة الى ذلك . ومن هنا اخـــذ يقيم العرض العسكري تلو العرض العسكري استرضـاء لرعاع باريس وجماهيرها وحملاً لهم على الايمان من جديد بقوة فرنسا . والحق ان المواكب العسكرية قد تكون ذات اثر في استعادة الامة لاحترامها الذاتي ، ولكنها لا تملأ بطون الاطفال ، كما أن هذا الجيش الجديد

الذي يزداد توره ماً وانتفاخاً يوماً بعد يوم لن يقوى على أن يُشعل النار في المصانع ويصلح ما أفسدتـــه الحرب من الطرق . ولم يكن دي غول محبوباً . ولم تكن الامة له شاكرة حامدة. لقـــد جاء ، ولكنه لم يجيء وحده ، وهو لم يكن عـــلى كل حال منقذاً ولا مخلّصاً . كان طاغية ، يخافه الناس ، ويحترمه الناس ، ولكنه كان بدون اصدقاء . واحسب انه اليوم ناء عن الاهل والاخوان كما كان في عهـد المنفى ، تمـاماً ، وان قلبه ليجيش بالحقد نفسه الذي جاش فيه ، يومذاك .

تلك هي نظرتي فيه . إني لم أره ولكني كنت اعرفـه . ومن هنا كان اصدقائي الخلّص في هـذا الوقت افراداً من فرقتـــه الفرنسية الحرة .

وظللت بعيدة عن اصدقائي القدماء الذين عرفتهم ايام السلام . كان بعضهم في السجن بتهمة التعاون مع الالمان ، وكان آخرون فيه كذلك بتهم من الخير أن لا اسأل عنها . وأرجأت مرة ثانية اجتماعي بالمرأة الوحيدة التي تقت الى رؤيتها وخفت هـذه الرؤية في وقت واحد ، وقصرت نشاطي على الاعمال الرسمية ، او كدت . لقـد كان من العجيب ان يعيش المرء في باريس وكأنها معسكر حربي ، ولكن هذا ما آلت اليه العاصمة الفرنسية . كانت باريس بالنسبة الي ثكنة للجنود ، ليس غير .

٣

كان مستشفانا يقوم في اوتيل بريستول في بوليو ، وكنا قـد

تلقينا الامر بان نحزم امتعتنا للرحيل عن الارض الفرنسية ، عندما نشب القتال بسوريا ، في اواخر نوار (مايو). كانت الصحف المحلية قد اشارت الى هذه الواقعة اشارة موجزة . وكانت راشيل تملك راديو ، فحملت اليّ النبأ ، نبأ قذف الفرنسيين للعاصمـــة السورية بالقنابل . ولكني عندما قصدت الى غرفتها في الليلة التالية لاستمع الى الاذاعات ، كانت « بطاريتها » قـد نضبت ، واصاب الراديو الخرس .

واثار الخبر اهتمامي، طبعاً، ولكني لم يخطر لي ببال انني وادوارد يمكن ان نُقحَم في القضية . وكيف استطيع ان اتخيل ان القتال بين الفرنسيين والعرب على الجـــانب الشرقي من البحر المتوسط سيكون ذا أثر في اعمال « الوحدة » ونشاطها ؟ وعنـدما سألت الكولونيل عن المسألة هزّ بكتفيه ، وقال شيئا عن « قصة قذرة » وانطلق الى الخارج يدعو « مايك » ليشرف على تحميل السيارات الشاحنة .

وحمّلت السيارات على اساس من خطة دقيقة . فقد كان لدينا متاع كاف لاربعمئة من المرضى، وكثير منه بالٍ عتيق . وتخيرنا الاصلح ليجتمع لدينا ما يكفي « وحدة » متنقلة ذات مئة سرير ، ونضدنا ذلك كله في الشاحنات ، واضعين لوائح بمحتويات كل شاحنة وخاتمين الاحمال بحيث لا تصل اليها يد . كانت الفكرة تقضي بان لا تمس هذه الشاحنات إلا بعد أن تهبط البر في مرفأ من مرافىء الشرق الاقصى . ذلك اني عزمتُ على ان اشارك الكولونيل في مغامرته الجديدة ، وكانت جوسلين راسل ، وايريس جودوين ، وراشيل في

اغلب الظن ، مستعدات مع عدد من الممرضات آخر للذهاب معي الى تلك الأصقاع .

وفي اليوم التالي امتطيت سيارتي الى باريس لأتصل بدوف كوبر ، واحظى للمرة الاولى بالحقائق الراهنة عن الازمة السورية. فعرفت ان الجنرال ديغول كان يلقي تبعة ما حدث ، على الجنرال سبيرز ، الذي كان قد غادر البلاد قبل خمسة أشهر كاملة. ولم اسمع القصة المريعة عما حدث فعلاً في دمشق إلا بعد ان وصلت انكلترا. وكان عليّ ان انتظر برهة أخرى لأسمع كيف قذف الجنرال اوليفا روجه البرلمان السوري من على مسافة عشرين باردة ، وكيف ان جنوده السنغالية قد انقضوا على حرسه من رجال الدرك وقطعوا أجسادهم إرباً إرباً بالحراب . ولم اعرف شيئاً ، وانا في باريس ، عن تصويب القنابل نحو فندق اوريان بالاس وموت صديقنا الماجور سكوت نكلسون ، العضو السابق في بعثة سبيرز ، فقد اصابته قنبلة يدوية القاها احد الفرنسيين على نادي الفندق ، فنقل الى الملجأ حيث سال منه الدم حتى مات قبل ان تبلغه النجدة. كذلك لم اعرف شيئاً عن الذعر الذي دبّ في المدينة المزدحمة المروّعة عندما اخذت مدافع الجنرال روجه تقذف الشوارع الضيقة ، وطفقت طيارة فرنسية تلقي القنابل على الاسواق ، وعن الشهوة الى الدم ، وعن وحشية الفرنسيين ثم ارتداد العرب على مهاجميهم ، واخيراً عن مجيء الجنرال باجت مع فرقة بريطانية مصفحة ليعيد النظام ، وينقذ الفرنسيين من مذبحة محتمة . اجل لم اعرف شيئاً من ذلك كله ، بل لم اطلع على وقائع جلسة البرلمان

الفرنسي في الخامس عشر من شهر حزيران (يونيو) عندما ألقى الخطباء واحداً بعد آخر ، تبعة « الحادث البشع » عـــلى سبيرز وجواسيسه وعملائه . كنا نستعد لحضور العرض الذي سيقام يوم الثامن عشر ١٨ حزيران ، وكانت الفتيات يصقلن سياراتهن ، في حين بدأت الممرضات في القيام بواجباتهن من جديد ، فقد كان في مستشفانا مائة مريض ، ولم اكن قـــد قرأت صحف باريس . ومهما يكن ، فاني لست ادري ،حتى هـــذه الساعة ، إلى اي حدّ توسعت هذه الصحف في بسط المناقشة التي كانت في البرلمان ، ذلك اليـــوم .

ولم اقصد الى الاجتماع بدوف كوبر لاسأله عما حدث في دمشق، ولكني قصدت لأخبره عن مشروعاتي للشرق الاقصى . ذلك بانني كنت كتبت الى دي غول في ٣١ نوار (مايو) اعلمه انني على استعداد للذهاب مـــع الوحدة الى الميدان الحربي في المحيط الهادي ، إذا كان في ذلك غَناء او فائدة . وبعثت اليه الرسالة من طريق السفارة، فاقرّ الفكرة بافلسكي، امين سر الجنرال دي غول الخاص ولكن دي غول نفسه لم يجب . وكنت ابتغي جوابا .

وطفا الفضول على وجه دوف كوبر عندما انبأته بهذه الاشياء ، ولكنه لم يتكلم الا قليلا . ولقد وافقني على انني منحت دي غول وقتاً كافياً يجيب في خلاله عن رسالتي ،ولكنه نصح لي ان لا افعل شيئا الا بعد الثامن عشر من ذلك الشهر (حزيران) .

وقدّم اليّ رسالة . كانت من ادوارد جواباً على رسالة كنت كتبتها اليه من بوليو . وهنا ايضاً اصطنع ادوارد الكلمات عينها التي

قالها لي في سنة ١٩٤٣ بعد ازمة بيروت :

« ان موقف دي غول مني وموقفي من دي غول لا ينفيان انكِ كنت طوال اربع سنوات تعملين في خدمة الفرقة التي أسهمت انا في تكوينها وإنشائها. يجب ان تشاركي ، في يوم ١٨ حزيران».

ونظرت الى دوف كوبر ، فقال : « اجل يجب أن تشاركي في الاحتفال ، ولا تغفلي عن نشر العلم البريطاني ... »

— « هـذا ما نفعله دائماً . إن شعارنا لينتظم العلمين الفرنسي والبريطاني معاً . وانا اعتزم ان أبرز هـــذا الشعار على سياراتنا المشتركة في العرض. فنحن «وحدة» بريطانية — فرنسية على كل حال.

ثم انني سألته عما وقـع في سوريا . « فادوارد لم يكتب اليّ حتى الان ، شيئا عن ذلك . أنا لم اتلق منه رسالة منـذ اسابيع . وليس يكاد يوجد في الصحف المحليـة الصادرة في فرنسا الجنوبية ، شيء عن الموقف هناك » .

— « من الخير لكِ ان تحتفظي بهذه » قال ذلك ، وقـدم الي بضع صحف وجـدت فيها النص الحرفي لحديث الجنرال دي غول للصحافة في الثاني من حزيران ، والنص الحرفي لرد تشرشل عليه ، في مجلس العموم ، في الخامس من ذلك الشهر .

وحملت هذه الصحف معي الى «تريلبورت» ، فطالعتها في غرفتي. ولقد ظهر لي من حديث دي غول ان البريطانيين هم المسؤولون ، منذ البدء ، عن الاضطراب في سوريا ولبنـــان . فعندما زحف الفرنسيون الى سوريا في سنة ١٩٤١ اخـذوا معهم ، بعض الجنود البريطانيين . ومن ثم لم يسمح البريطـانيون لفرنسا بان « تقود

obeikandl.com

سفينتها في سوريا » كما سبق لهم ان وعدوا ... ليس هذا فحسب ، بل لقد كان في حديثه اشارات مستهجنة الى عملاء بريطانيين نشطوا لأيغار صدور العرب على الفرنسيين ، ونصّ على ان البريطانيين قد سلحوا العرب ضد الفرنسيين . وجوابا على سؤال وجهه اليه احد الصحفيين ، قال دي غول : « بلى ، لقد طلبت استدعاء الجنرال سبيرز من منصبه في الشرق. ولو اني طلبت استدعاء جميع العملاء البريطانيين غير المرغوب فيهم من سوريا ولبنان إذاً لكانت اللائحة طويلة لا نهاية لها ... »

ورجعت إلى الحديث من جديد، أعاود قراءته : « عندما ذهب الفرنسيون الى سوريا اخذوا معهم بعض الجنود البريطانيين ... » والحق انني لم أقع على جديد في إنحاء دي غول باللائمة على البريطانيين في حوادث المشرق واضطراباته ، ولكني دهشت اشدّ الدهش كيف جاز لهذا الرجل ان يتوقع من العالم ان يصدقه حين يزعم أن فرقته الفرنسية الحرة الوحيدة هي التي نهضت بعبء العمليات الحربية ضدّ جيوش فيشي البالغ عددها ثمانية وثلاثين الف مقاتل ، بمساعدة بعض الجنود من البريطانيين؟ بيد ان الذي لاحظته أنه لم يكن ثمة إشارة الى ايما قوات فرنسية فيشية مقيمة في سوريا ، ولا الى الباخرة الطيبة « بروفيدانس » التي اقلّت عدداً كبيراً منهم الى ارض الوطن . لقد زحف هو - دي غول - فيما يبدو من حديثه، الى سوريا من غير ما مقاومة ، على رأس جيش من الفرنسيين ، ليجد هناك بعض العملاء البريطانيين الذين اثاروا العرب عليه ، فاضطر آخر الامر الى ان يطلب استدعاء اكثر هؤلاء العملاء

خطراً ، الجنرال سبيرز .

وانتقلت إلى ردّ ونستون تشرشل في مجلس العموم ، فوجدته يقول :

« إني واثقٌ من أن اذىً كثيراً لابدّ أن ينجم اذا انا لم اردّ على بعض ما توجه به الجنرال دي غول الى الصحافة من مزاعم .... إن حديث الجنرال دي غول ليقصد اول ما يقصد إلى ان يوحي بان الازمة المشرقية بكاملها ناشئةٌ عن التدخل البريطاني .... والواقع أننا ابتعدنا اشد الابتعاد عن اثارة الاضطراب ، ولم نكتف بذلك بل اصطنعنا نفوذنا كله في اتجاه معاكس لهذا الزعم ، معاكسة تامة .... فأنا بنفسي اقنعت الرئيس السوري ، في القاهرة ، شهر شباط (فبراير) بضرورة الوصول الى حلّ سلمي .... لقد نجحنا في إقناع دولتي المشرق بأن تفتحا باب المفاوضات .... ولكن بينا كان الجنرال بينه لايزال في باريس ، اتضح للمسؤولين في سوريا ولبنان ، في نيسان، ان الفرنسيين يعتزمون ان يبعثوا الى المشرق بالامداد العسكرية .... وفي الرابـــع من نوار (مايو) ارسلت كتاباً شخصياً يزخر بالودّ ، الى الجنرال دي غول .... لقد اظهرت له في هذا الكتاب أن زيادة القوات الفرنسية في المشرق ، في تلك اللحظة بالذات ، خليقة بأن توقع في نفوس السوريين واللبنانيين أن الفرنسيين يستعدون لحلّ المسألة في ظلّ التهديد بالقوة ... وفي الثاني عشر من نوار (مايو) رجع الجنرال بينيه الى بيروت ،وبدأ مباحثاته . وفي السابع عشر منه وصلت طـلائع القوات الفرنسية الجديدة ، وبسبب من ذلك قطعت دولتا المشرق المفاوضات ...

ثم إن قتالاً مستحراً نشب في حماه ، في ٢٧ نوار ...

« ولست في حاجة الى ان اوسع القول في الاحـــداث التي وقعت في البلاد ، بعدُ ... ففي حمص وحمـــاه اطلق الفرنسيون لمدافعهم العنان ، وانتهت الحالة الى الاضطراب العـام . وامتدت الاضطرابات الى دمشق ، حيث بدأ الفرنسيون ، في ليـل التاسع والعشرين من نوار يقذفون بقنابلهم هذه المدينة المفتوحة المزدحمة ، وظلوا على ذلـــك حتى صباح الحادي والثلاثين من نوار . وتنص الارقام الرسمية على ان الضحايا في دمشق بلغت : ثمـانين قتيلا من رجال الدرك ، واربعمائة قتيل من المـدنيين ، وخمسمائة جريح في حالة خطرة ، والف مصاب بأذى ...

« والذي ارجوه ان يتضح لكم من هذه التفصيلات انه ليس صحيحاً ، كما يزعم دي غول ، اننا سعينا الى اثارة الاضطراب ،وان العكس هو الصواب ... إن وعدي للجنرال دي غول باجلاء جميع جيوشنا ، حالما تتخذ التدابير التي من شأنها أن تحول دون اختلال حبل الامن في سوريا ولبنان ، كان جديراً بأن يزيل من اذهان الفرنسيين ، الى الابد ، تلك الفكرة القائلة بأننا نرغب في ان نخلفهم او نحل محلهم ، او نسلبهم نفوذهم . نحن لا نعتزم ان نسرق املاك احد في هذه الحرب ... »

*

والتفت ذهني الى دمشق . كان في استطاعتي ان ارى الشارع اللاحب الطويل الذي يقود الى المدينة ، متوهجاً في الشمس المحترقة ، والساحة التي تحيط بفندق اوريان بالاس حيث كان الزعماء العرب

يفدون لرؤيتنا ، في وقت من الاوقات . وسمعت سعدالله الجابري يقول من جديد: « لن نعقد معاهدة مع الفرنسيين ! » وبدأت الصورة ترتسم في مخيلتي وانا اقرأ . لقد استطعنا نحن البريطانيين ، ان نقنع ، آخر الأمر ، شكري القوتلي بالتفاوض عـــلى المعاهدة الكريهة ، ولكن الفرنسيين أفسدوا ذلك كله ، واضاعوا فرصتهم الذهبية ، من جديد . إنهم لم يتعلموا شيئاً ولم يفهموا شيئاً . والشيء الوحيد الذي لاح انهم يؤمنون به ، ويعولون عليـــه هو وسيلتهم القديمة : استعمال القوة . لقد جرّبوا القوة في بيروت سنة ١٩٤٣ فاخفقت . لقد انبأوا دي غول بأنها اخفقت بسبب من الجنرال سبيرز . وها هم الان قـد جربوا القوة في سوريا ، فأخفقت ايضاً ، ولكن اخفاقها ، هذه المرة ، كان مخيفاً ومُخجلاً ، بعد ان رُميت دمشق بالقنابل . لقد انتفض العرب عليهم ، وكانوا خليقين بمحوهم عن بكرة ابيهم لولا أن تقدّمنا نحن لأنقاذهم .

ثم تابع المستر تشرشل خطابه ليقول :

« واخيراً أجد من الضروري أن اردّ على الاشارة الزاعمة انّ صديقي الشهم النبيل ، نائب كارليسل » ، قد أستدعي من منصبه كوزير لجلالته في بيروت ، بناء على رغبـــة الجنرال دي غول . فالواقع أن السبب الذي جعـــل صديقي الشهم النبيل يرغب في التخلي عن منصبه ـــ وهو العودة الى ممارسة واجباته البرلمانية قبل بدء الانتخابات العامة ـــ قد شُرح احسنَ الشرح في بلاغ ، نُشر في ذلك الوقت ، ومن هنا يتضح لكم أن الزعم القائل بأنه استدعي ارضاءً للجنرال دي غول ليس يتمتع باساس من الصحة عـــلى

الاطلاق. ومن الخير لي ان انصّ هنا على انني انما اخترت صديقي الشهم النبيل لهذه المهمة في لبنان لأنه بالأضافة إلى صفاته الاخرى، يحمل خمس شرائط خوّلته اياها جروحه، يوم كان يقوم بمهمة ضابط الارتباط بين الجيشين الفرنسي والبريطاني، في الحرب الماضية. إنه آخر من يحق للجنرال دي غول ان يغمز من قناته، لأنه هو الذي مهّد بنفسه للجنرال دي غول طريق الهرب من بوردو الى انكلترا، في سيارته ثم في طيارته، يوم ١٨ حزيران (يونيو) سنة ١٩٤٠».

ووضعت الصحف في ظرف، ووضعت الظرف في حقيبتي العسكرية. كانت ركبتاي ترتعدان بعض الشيء، عندما جلست على الفراش القرنفلي. لم يكن ثمة شيء آخر استطيع الجلوس عليه، فقد كانت الكرسي الوحيدة التي في متناولي مثقلة بالمعاطف والاثواب العسكرية الرسمية. كانت شمس الاصيل تتدفق اشعتها على الغرفة كالسيل العارم. فالغرفة حارة شديدة القيظ. إنها غرفة هجرة، صغيرة لا زخرفة فيها ولا تنميق، وهي تغص بامتعتي وحقائبي، مركومةً على الارض. إن امتعتي وحقائبي لتبدو في الحق متعبة مكدودة، فقد تجشمت معي السفر من لندن الى هذه الدارة (فيللا) على المارن. حسناً. إنها لا بد ان تبلغ غاية رحلتها في وقت قريب...

كانت ثمة زيارة واحدة يجب ان اقوم بها قبل أن ارحل الى انكلترا والى الانتخابات النيابية في «كارليسل». وفي اليوم التالي قصدت لزيارة تلك المرأة التي كنت اتوق الى رؤيتها، واخشى

رؤيتها ، في وقت معاً . وخفق قلبي خفقاناً شديداً عندما ولجت غرفتها المألوفة . وما كادت تراني حتى اندفعت نحوي وضمتني من ذراعيها وقالت من غير ما مقدّمة : « اخبريني ،ما الذي قد قام به ادوارد نحونا في سوريا ؟ » وانفجرتُ بالبكاء . حتى اذا كفكفتُ دموعي ، تحدّثنا كما جرت عادتنا ان نتحدث ، دون ان يطرأ على طريقتنا في الحديث إلا تعديل طفيف . فما كنت لأكذبها الأخبار، وما كانت هي لتكذبني . ومن هنا حاولت ان اروي على مسمعها القصة كلها . وأصغت اليّ ، كانت تعلم انني اقول الحقيقة كما رأيتها، ولكن ذهنها كان مشرباً بقصة اخرى . لقد قرأت هذه القصة في الصحف الفرنسية ، وسمعتها من اصدقائها . وبدأتُ أرى ان من العبث إقناعها . لقد كانت كريمة ودودة . وكان ترحيبها بي حاراً كعادتها ، ولكن كان ثمة حاجز خفيّ ... لقد امطرتني باسئلة لم يكن الوقت يتسع للاجابة عليها جميعاً . فما اكثر ما كانت تجهله وترغب في ان تعرفه !

وقلت لها إننا لا بدّ أن نعود الى بحث ذلك كله ، في وقت آخر . فأنا خليقة بأن أرجع الى فرنسا، وعندئذ نتحدث احاديث كثيرة ولكن عن غير الحرب . حتى إذا ودعتها بدا الماضي مظلماً وراء عينيها ....

فهرست

١ - اول العهد	٣
٢ – مع دي غول والفرنسيين الاحرار	١١
٣ – في المجتمع بين بيروت ودمشق	٣٥
مع رجالات دمشق ونسائها	٣٨
في قرى سوريا ولبنان	٤٦
دنيا بيروت	٤٩
٤ – من كاترو الى هيللو	٥٧
٥ – مؤامرة في ليل	٧٢
٦ – عشرة أيام من تشرين	٩٤
٧ – الاسابيع الاخيرة	١٢٠
٨ – مأساة دمشق	١٤٣

obeikandi.com

اعلام الحرية

سلسلة ادب ورواية وتاريخ

تصدرها دار العلم للملايين في منتصف كل شهر

تأليف قدري قلعجي

مدرسة في القومية الصحيحة والكفاح الوطني
تقرأ فيها سير اعلام الحرية وابطالها في الشرق والغرب
باسلوب جذاب يجمع بين الدراسة التاريخية والفن الروائي

صدر منها :

١ ــ سعد زغلول : رائد الكفاح الوطني في الشرق العربي
٢ ــ ابراهيم لنكولن : محرر العبيد وموحد الولايات الاميركية
٣ ــ مدحت باشا : ابو الدستور العثماني وخالع السلاطين .
٤ ــ روبسبير : بطل الثورة الفرنسية .
٥ ــ جمال الدين الافغاني : حكيم الشرق .
٦ ــ شوبان : نشيد الحرية والوطنية .
٧ ــ صلاح الدين الايوبي : رجل غيّر وجه التاريخ

يصدر قريباً :

٨ ــ كرومويل : بطل الثورة الانكليزية .

●

ثمن النسخة ١٥٠ قرشاً او ١٧٠ مليماً او ملًا او فلساً

متعهد التوزيع : شركة فرج الله وحتي .

٧٩ — ٧ — ١٩٤٧

السلسلة السياسية

•

تعالج اكبر مشكلات الساعة في العالم

وتعرض التيارات الفكرية المختلفة على ما بينها من تعارض وتضارب لإقامة الوعي القومي عند الاجيال العربية الحديثة على اساس من الثقافة الصحيحة المقارنة . صدر منها :

١ – هذه هي الديموقراطية : للدكتور ادوار بنيش .
٢ – عالم واحد : لوندل ويلكي .
٣ – عالمان : لوليم زيف .
٤ – الثلاث الكبار : لد . ج . دلين .
٥ – ساعة الحسم : لصمنر ويلز .
٦ – آخر أيام هتلر : لتريفور روبر
٧ – قصة الاستقلال في سوريا ولبنان : لليدي سبيرز .

متعهد التوزيع : شركة فرج الله وحتي .

تطلب في مصر من مكتب الكشاف للنشر ، ٣٩ شارع سليمان باشا القاهرة . وفي العراق من المكتبة العصرية ببغداد

٢٠٠ قرش
٢٢٠ فلساً او مليماً او ملا

مطبعة الكشاف بيروت

obeikandl.com